تجليات أدبية

رواية

ألعاب الهوى

وحيد الطويلة

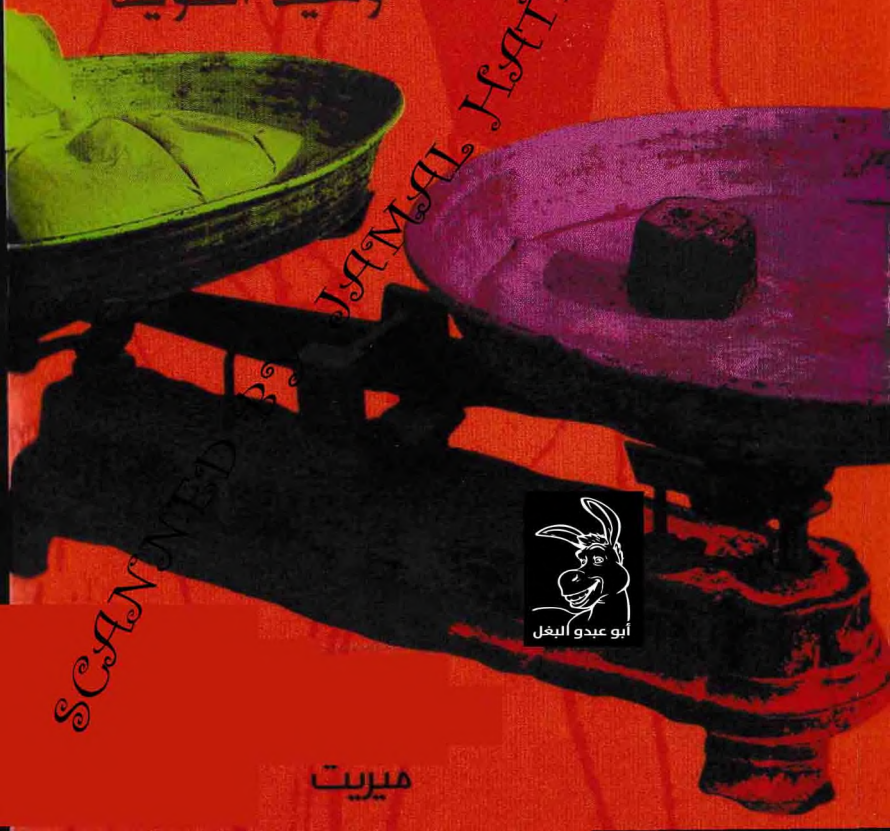

SCANNED BY HAMADA HAMADA

أبو عبدو البغل

ميريت

ألعاب الهوى

ألعاب الهوى

وحيد الطويلة

الطبعة الأولى، ٢٠٠٤

(c) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **٢٠٠٤/٢٢٢٤**

الترقيم الدولى: **977-351-162-6**

وحيد الطويلة

ألعاب الهوى

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٤

فيروز

ابنتي الصغيرة
كم أود لو أهديك القمر
تعطيه لحبيبك عندما تكبرين
لكنهم نشلوه أمام عيني
بعد أن وضع في يدي قطعة حلوى
حبيبتي فيروز
إليك أوراقي
عله يعـــود

حبيبك وحيد

لـــم يكن في الغرفة سواهما، الشيخ حامد، وقد مد ســـاقيه متكئا على جنبه الشمال، تحت كوعه مخدتان، مخدتا أمـــه، بواقـــي شـــوارها منذ زواجها الأول، يده اليمنى تقلب ســـجائره اللف، يفتش عن واحدة ظرية، يبلل طرفها السائب مـــن أعلى بلسانه، ينفضها برفق على ظفر إبهامه، ويدفعها كســـابقاتها داخل المبسم الخشب، مبسم أبيه، يرفع لمبة الجاز شـــطر وجهه، يمد السيجارة أعلى فتحتها، يدوزنها، ثم يشفط شفطتين...

.. أولعلك واحدة.. أنت خلصت ولا لسه يا سماعين؟.

الشـــيخ إســـماعيل يأكل على أقل من مهله، وصل إلى الرغـــيف الخـــامس، مازال في نصف صحن العدس المسقي التخيـــن، يغوص على راحته، ويلحس الحواف بلقمة لدنة.. عدس الشتاء في البرية، الشوربة مع الرز للعشاء بعد صلاة المغـــرب، والعـــدس بقوامه الثقيل للغداء والحرفشة في آخر الليل.

ـــ أنـــت مش ناوي تديها معايا يا شيخ حامد، أنت كلت والا إيه ؟!

.. سبقتك يا خويا، نص صحن عدس معتبر، راكب على قلبـــي من ساعتها، كل يا شيخ سماعين، سهروا الليل وخدوا زبـــده، وسابوا الحامض للنوام، كل يا خويا ، كل، كلت اللي

أكله فرج.

ــ خدوا زبده !!، طيب ! ــ هو فين زبده ده ؟!

الشــيخ إسماعيل لا يأكل على مضض، لكنه يمني نفسه أن يهبط الوحي على الشيخ حامد، ولو مرة واحدة في السنة، وينعم عليه بورك فرخة بايت أو حتى دبوس، رغم أنه يعرف في قرارة نفسه، أن الشيخ لو طلع أبوه من التربة لن يفعلها، لكنه لا يحتمل أن يغلق باب التمني، حتى ولو سك حامد على الزَفــر كعادته، لذا يلوك السريس على مهله، ويكسر العيش الناشف بصوت عال، ربما تنفتح طاقة من طاقات ليلة القدر التي قضى عمره يحتشد لها في أواخر رمضان، ويدعوها.

ضــرير يعمــل مؤذنا في جامع الشيخ حامد، قريبه من ناحــية الضــل، الأمهات أولاد خالة من بعيد، أصابه العمى صغيرا، أغار عليه في يوم وليلة، وأخواله العمد كبسوا عليه أيضا، أكلوا حقه في الأرض والضرع، فأكلته الحسرة من كل ناحــية، لكــنه عفي النفس والروح، عفيف إلا في موضوع الأكــل، يأكل بقرة بحوائجها، يمشي وراء الشيخ حامد على طول الخط، يُصدّقه ويَصدقه إلا في حكاية الأكل.

ـ انتوا دابحين إيه النهارده يا حامد ؟.

لـم يعطه الشيخ أذنه، ولا فات الكلام عليها، اعتدل من كوعـته، أمسك وقية دخان، تحسسها منبعجة من المنتصف، ضغط على أطرافها قبل أن يفتحها حتى يلين دخانها، ويدخل المهـترئ فـي المكبوس، خبطها برفق في الأرض مرتين، فتحها وألقى ما بها في صحنه الصاج، صحن شاف الأمرين، وأتت عليه الأيام، طلاؤه الخارجي مقشر من معظم نواحيه، بـدا مرقشا بين الأبيض والأسود الكالح، سحب ورق البفرة، وبدأ يلف سجائره، طقس ليلي اعتاده مذ تعلم شرب الدخان، فجأة وجده أمامه.

.. أنت مين، ودخلت هنا ازاي ؟!.

ـ أنا عزرائيل يا شيخ حامد.

.. مين، مين يا خويا ؟!.

ـ عزرائيل.

أحس أن شيئا باردا غشيه، وتسرب إلى الحشوة أسفله.

.. وعايز إيه يا بن خالي ؟!.

* مافيش ورك فرخه بايت عندك يا شيخ حامد ؟.

.. يا شيخ اتلهي على عينك أنت كمان، إحنا في إيه والا إيه، قلت لي عايز إيه يابا ؟!.

ـ عايزك علشان تيجي معايا.

.. آجـــي معاك، يا داهيه دقي، ملقيتش غيري ولا ايه، أنـــت خلصت البهايم اللي وراك كلهم - يبلع ريقه ـ إسمع يا عبد الرحمن يا بن خالي، روح دلوقت، وتعال بعد شويه.

ـ وقتك قرب يا شيخ حامد.

أحس من نبرته أن الأمر ليس قاطعا تماما.

.. شوف يا عبد الرحمن يا بن عمي، نميرة مراتي، انت عارفهـــا، ولـــيه سواقط قيد، إديني فرصة أسننها، اعمل لها شـــهادة الميلاد، وأخلص لها ورق المعاش وبعدين تعال وقت مـــا أنـــت عايـــز، أسيبها لمين بعدي يا عبد، تأخدش نفسين يا خويا.

ـ أنا ماشي، ومش هأغيب يا شيخ حامد.

* أنـــا بقولـــك عايز ورك، تقوللي تاخدلك نفسين، وإيه عبد الرحمن دي، البخل نساك اسمي يا شيخ حامد ولا إيه.. وكمان بتدلعني علشان أنسى، قال عبد قال، يا سلام عليك لما

تطنش، هات الشاي يا شيخ.

الشيخ لا يعرف هل هو فوق الأرض أم تحتها، صحيح أنــه لا يخــاف الموت، ولا يكترث لعزرائيل، ولم يفكر فيه مــرة، يشعر أنه أدى الرسالة وزيادة، لكن مجيئه فجأة أربكه على نحو ما، سرعان ما تسللت إليه الرهبة شيئا فشيئا، وأخذ يضــحك علــى نحــو هستيري وبصوت عال زادته أسنانه المفرَّغة رنينا.

.. مــا عنده الصيع ماليين الدنيا، وقاعدين على كوبري البلد للصبح، سايب البراطيش دول وجايلي !!.

كــان الــنوم قد غلب إسماعيل بعد الرغيف السابع، في انــتظار مــا لا يجئ، وأخذ شخيره العالي وضراطه القوي المتقطع يختلط بضحك الشيخ الذي أخذ نفسه بالعافية، اقترب منه، لكزه في كتفه، ثم أخذ بيده إلى الدكة الخشبية.

ــ واخدني على فين يا راجل، أنا ها نام هنا.

لم يكترث لتبرمه، ولا لجسمه الثقيل الرزية، جذبه بشدة، وأخذ يسحبه، أحس إسماعيل بشيء بارد أسفل قدمه.

ــ هــيه السما شتت هنا تاني يا شيخ حامد ؟، السقف ده

باين عليه بينقع.

.. براد الشاي اندلق مني يا حبة عيني.

عدله بصعوبة على الدكة.

.. جتك خيبة، وانت تخين زي البغل.

ــ تخيــن تخيــن، من دارنا يا خويا، سلامة الدكر البط اللي انت جبته، مش كفايه الشاي طار، اديني سيجارة، ولا ما دبحتوش النهارده ؟.

ســحب الشيخ الحِرام الصوف عليه، غطاه جيدا، وتركه خارجــا إلــى غرفــته، تلاحقــه ضحكة إسماعيل وبصوت مغلوب.

ــ قال عُبَّد قال، البخل لحس عقلك.

خلــع الشــيخ هدومــه سريعا، وعلى عجل غير لباسه المــبلول، تســحب تحــت الغطاء حتى لامس ظهر نميرة، مــد يده، تحسسها، هذه المرة أفلت من عزرائيل وزاغ منه، فــي المرة القادمة ماذا يفعل ؟.. يحلها الحلال.. قال بصوت مسموع، ثم أغمض عينيه بقوة، شد الغطاء على وجهه حتى لا يراه إذا أتى مرة أخرى، انزاح بجسده للداخل، حشره في

جســد نمــيرة ليــتدفأ بها، ضغط على ظهرها ليطمئن أنها موجــودة، ربما ليطمئن نفسه أنه مازال حيا، مرر كفه أمام أنفها يتحسس أنفاسها، قال في سره، ربما يكون عبد الرحمن قد مر عليها، أو أخذها بدلا منه.

.. أنا عارفه إيده ما تطلعش فاضيه، هو خسران إيه؟!.

مغــتاظا من نفسه، ناقما لأنه بال على روحه، وممن؟، من عبد الرحمن !!، عبد الرحمن يا حامد !!، أنت لا تخاف إلا مــن الكبير، أما عبد الرحمن فلم يأت أبدا على بالك، ولم يمــر على خاطرك حتى مرور الكرام.. بلع غيظه، واعتدل على جنبه الأيمن في اتجاه القبلة.. فليأت متى يأتي..

هل أنت خائف يا حامد، خائف ؟!، أبدا والله، ربما تكون المفاجأة صدمته، وربما برد الليلة هو الذي عجل بها، وزاده ارتعاشا حتى سمع صوت مفاصله.. وممن يا حامد؟، أقل بني آدم، أحســن مــن أحســنها ملــك،.. يخاف، وهو حامد بن عروســة، وعمــه شلضم الحرامي، قتال القتلة، ترك القتيل يــنازع على آخره، والدم يشر منه، تركه يطالع في الروح، ومــد يده في سيالته، أخذ منها كفوف الحلاوة، أكلها، وتركه

يتلقى الموت وحده.

يخـــاف، وهو حامد بن عروسة، أفنى عمره كله، ستين عامـــا وهـــو يخطـــب فـــي الناس، هو الذي علمهم من هم الملائكة، وألا يخافوا عزرائيل ولا غيره، ولا يخشونه، لأنهم ذاهـــبون عند الكبير، وآخر المتمة يرتعد أمام ملك.. لا.. لا يا حامد، ساعة الجد لا تنسى أنه عزرائيل بجلالة قدره.

.....

يتقلـــب ذات اليمين وذات الشمال، شعر بنفسه خفيفا بين أيديهـــم، لم يكن مغرما ــ ولو للحظة من داخله ــ بكرامات أحـــد، ويصـــب غضـــبه وســـخريته على مدعي الكرامات وخرافات الأسياد، لكن لم لا، لا مانع أن يطير بالنعش ويوفر على نفسه الوقت، وعلى الآخرين طول الطريق إلى الجبانة، ولكـــن لماذا يوفر عليهم ؟!، وهم الذين قصفوا عمره وأفنوه، نـــبح قلـــبه ستين عاما، ولا من مجيب، المسلمون هم هم لا يتغـــيرون، ولـــو نفخـــت فيهم بالمنفاخ.. بلد نصها حرامية

و النص التاني بيفكر.

قـــال أحدهم بصوت خفيض، بعد أن رموا النعش على الأرض :

ـــ ده تقيل قوي ياله، زي الرزية.

.. حاسب، حاسب، تقيل الجسم، خفيف الروح.

ـــ والله مـــا انا عارف إن كان خفيف ولا تقيل، ماكانش بيبطل أكل.

يمـــد يـــده، يحـــاول أن يشـــده من زمَّارة رقبته، لكنها لا تطاوعه، ولا تحركت من مكانها، كأنها يد أحد آخر.

أدخلوه، وعلى عجل أوسدوه، لم يشعر بهم وهم يغلقون الباب عليه، أخذ يتسمع أصوات أقدامهم تخفت شيئا فشيئا، لم يستطع أن يعدل جسمه على أي من جنبيه، ملتصق بالأرض تماما، كتلة واحدة، لم يشعر بقدومهما ولا متى دخلا، عادت إلـــيه خفـــته عندما شداه وأيقظاه وتوالت الأسئلة، من، من، ومن؟.. استغرب أسئلتهما، وفتح فمه على آخره.

.. أنـــا حـــامد بن عروسة، ستين سنة قضيتها في تعليم بهـــايم الـــبرية، إزاي يـــاكلوا، ويـــتأدبوا، وينضفوا نفسهم،

ونفوسهم يا بن خالي، وفي الآخر تيجي تسألني أنا ؟!.

أرجعاه لرقدته الأولى، قال أحدهما للآخر :

ــ لــيس هناك فائدة ترجى منه، رجل داهية، نرسل له الجماعة الكبار.

قالت نميرة، وهي تهز كتفه بعنف:

ــ والنبـــي يا حامد، والنبي على قلبك يا حامد، شكلهم إيه؟!

.. شــكلهم، شــكلهم، .. ناكــر أطول من نكير لكميه يا وليه.

سـكرا الـباب عليه ومضيا ـ ناكر الأطول من نكير قبضة يد ـ مضى مثلهما، لا يعرف إلى أين، يعرف فقط أنه هـائم، كأنـه سابح على ظهره في الهواء، لا يشوب روحه كـدر، لكـنه قلق قليلا، كأنما تحت رأسه حصى كثير، قلبها يمينا وشمالا ليتأكد أن لا حصاة صغيرة تنغزه، تلمسها غير بعـيدة.. وقعتك بيضاء يا شيخ حامد، لكنها ليست قريبة بما يزعجه، لا يدري ان كانت عيناه مفتوحتين أم مغلقتين، حزمة مـن ضي لا يتبينه جيدا، وان كان يحس به، وعتمة بيضاء، مشـوبة بـزرقة خاطفـة، خـاف أن يتقلب على أحد جنبيه فـتجرحه الحصـاة، حين هم بإبعادها سمع نفيراً يكاد يصم أذنيه.. والله وقعت يا حامد، جسده يعلو خفيفا، تأكد أنه سابح فعـلا، وصـوت خشـن كطـرقعة العظام بعد علقة ساخنة بالنبابيـت، جسده مازال يعلو، ويتفتق عن بعضه كأنه خارج

مـــن شيء هلامي لا يدري كنهه تماما، حين اصطدم رأسه بالســـقف، داست قدم عليه وركلته أخرى، نمل، نمل، يا خلق هـــووه، لم يكن ليسأل نفسه من أية داهية جاء هذا الجمع، غشـــيته إغمـــاءة خفيفة كأنما سحابة مرت أمام عينيه، كأنما أدار مؤشر التليفزيون، وجد نفسه بينهن، نساء.. نساء تماما، بهيئة واحدة، وملامح منسوخة، وجوههن ليست حمراء مثل وجـــه نميرة، وجوه ببياض الشمع، اعتقد أنه يستطيع العثور عليها بسهولة، نميرة أطول وأرفع، وعيناها خضراوان، ورنة ضـــحكتها وطيبـــتها في أذنه، وصوتها.. نعم سيعرفها على الأقـــل مـــن صـــوتها، هي الوحيدة التي تجرؤ أن تقول له يا حامد مجرداً من لقب الشيخ، يا نميرة، يا نميرة، أخذ ينادي بالصـــوت الحياني، ولا من مجيب.. أين أنت يا بن عروسه، أنت تهت؟، أحس بمن يربت على كتفه، إلتفت منتفضا.. من؟ هنيه، ضمها بعنف.

.. حمد الله على السلامة يا بنت خالي.

ـــ ســـلمت من الهم.. كنت عايزني هناك يا شيخ حامد، أنا هنا من نصيبك وعلى طول.

ـــ على طول لا !، لا يا بنت خالي، كنت عايزك هناك

علشـــان أديـــك المعاش، أتجوزك كده وكده يعني، لكن على طول لا، روقي يا هنيه.

راوغهـــا، انســـلت بعيدا، هنيه من الذين غلبهم الزمن، ماتـــت أمهـــا صغيرة، وهي صغيرة، تكفلت برعاية أختيها وأبـــيها الضرير، سيدنا، شيخ الكتاب بكبر سنه وهوانه على تلاميذه الذين ينسلون واحدا تلو الآخر، أصبحت أول عريف حريمـــي في الكتاب بعد أن تركه العريف النذل لكتاب آخر، وعـــندما جاءهـــا العـــدل، خطفـــت الحرب خطيبها فوزي الحمـــراوي، عاشت وأختاها على ذكراه بعد أن أصر الشيخ حـــامد ـــ الله يستره ـــ أن يطلب يدها على سنة الله ورسوله قبل سفرته الأخيرة للموت، وفوزي مثلها مقطوع من شجره ـــ لا أب ولا أرض ـــ خطفه الموت وخطف معه قلب البنات الـــثلاثة، كانـــت تمشـــي فـــي جنازته وهي تنادي بالصوت المجروح : يا فوزي، يا فوزي، اللي ما لوش ما لوش، اللي ما لوش ما لوش يا خويا.

لان قلـــبه، تلفـــت باحثا عنها، وجد نفسه فجأة في مكان اخر.. ايه الليلة اللي مش فايته دي، أرض كلها مغطاة بالجير الأبـــيض، يســـمع صوت ضحكة تارة وصرخة تارة أخرى،

قرصـــه الجـــوع، لم يأكل منذ زمن بعيد، ولا تكفيه في هذه اللحظـــة فرخة عتقية بأولادها، يسير ببطء ويده على كرشه يسمع خواءه.

علـــى يمينه بناء أبيض طويل، وعلى يساره آخر بلون كالح، رائحته طالعه تزكم أنفه، رمة، رمة، بدون تفكير أخذ طـــريقه ناحية اليمين، كان دائما على اليمين، يمين الحكومة، ويمين الاتحاد الاشتراكي، ويمين اخوته، حتى عندما يحلف، يحلف بيمين المصحف، لم يكن للبناء باب، لعله لم يأخذ باله، عـــبر العتبة دون أن يسمي، أربعة سلالم تهدمت تقريبا، كاد يســـقط عليها، ومن عليها، قرصة الجوع مرة أخرى، وقعت عيناه على جبل من الأكل، وجد دكر البط كاملا إلا من فلقة الصـــدر، أو ورك غائـــب، كـــاد يسأل كعادته عن الأوراك والصدور الغائبة.

عندما بلغ منه الشبع مبلغه تساءل في سره عن القوانص والكـــبد، وجـــد أطفالا صغارا يلعبون بأشياء غريبة، اقترب وسألهم بشغف عن صاحب العزومة الكبيرة.

.. طهور ده، ولا فرح، وفرح مين إن شاء الله ؟

ـــ ـــ احنا ولاد اليهود والنصارى ياشيخ حامد، لادخلونا

هنا ولادخلونا هناك.. ومش عارفين حيودونا فين.

.. وايه الأكل ده كله ؟!.

ــ كنسة أهل الجنة يا شيخ حامد.

.....

فــي الجانب الأيمن من الجامع، يحلو له أن يلقي درس العصــر، الــناس جلــوس، وهــو واقف يحرك جسده يمينا وشــمالا، يومــئ برأسه إلى الأمام وهو يشرح، صوته يكاد يصل للجالسين على كوبري المصرف، يسند ظهره للعمود، العمــود الذي كان أبوه يستند إليه كل جمعه ومن بعده النادي أخوه.

.. ماذا أعد الله للمتقين في الجنة يا أهالي البرية ؟

لمــح بطرف عينيه وفا زيت حار بن عمه يضع جزمته علــى أرض المسجد، هب فيه أن يضعها على الرف الخشب عند الباب.

ــ مالكي.

.. مالكــي ونضيف ماله يا خويا، داهية فيك، وفي اللي

مخلفينك.

وفا لم ينبس، يرد له الشيخ الصاع صاعين، في الجامع وعلـــى رؤوس الأشهاد، يعلم أن بن عمه ينتهز أحيانا غيابه عـــن الدرس ليصنع حلقة حوله، يريد أن يفتي بسلامته على رأي الشـــيخ إسماعيل، بل يريد أن يحلل للناس على مزاجه مســـتعينا بابن الهرمة فراش الجامع، الموالسة بين الحقيرين علـــى أشدها.. سوف أقطع الأرض من تحتهما إن شاء الله، وكل وقت وله أذان.

.. أعـــد الله في الجنة للمتقين يا أهالي البرية ما لا عين رأت (وأخـــذ يشير بإصبعه اليمنى لعينه)، ولا أذن سمعت يا شـــيخ ســـماعين (وأخـــذ يتسمع بوضع يده اليمنى على أذنه اليمنى).. يعني يا شيخ سماعين، عاوز بط تلاقي بط، عاوز فاكهة تلاقي فاكهة، كل حاجة تيجي لحد عندك، وأنت قاعد، لأنه سبحانه يقول : " وجني الجنتين دان "، يعني يقرب منك بالعربي كده.

دفـــن إسماعيل وجهه في جبته، زام وقال في سره : بط إيه، وفاكهة إيه، أنت حيلتك غير العدس، وإذا طلع من ذمتك كمان ؟!.

انضـــم وفـــا إلى الحلقة من أطرافها، وأخذ يتهامس مع الجالسين إلى جواره، عقد الشيخ يديه مابين قفطانه وكاكولته من الخلف، ونظر بطرف عين.

.. قول يا وفا، عارف أسئلتك خايبه زيك.

ـــ يعني يا حامد يا بن عمي، الجنه فيها فسيخ ؟!

أطرق هنيهة ثم وضع يده اليسرى على أذنه اليسرى.

.. أنا هنا الشيخ حامد مش حامد بن عمك يا نطع، حامد بن عمك دى هناك في الغيط، ثم على كل حال النفس الخبيثة وما تشتهي !!

قالت نميرة، وهي تهز كتفه بعنف لا يخلو من دلال:

ـــ كنت عاوز ترجع يا حامد ؟

.. أرجع منين يا نميرة ؟، أنا صدقت أستريح منك!!

بطـــنه تكـــاد تطرشق من الأكل، خبط عليها، لا صوت لها، ليس بها خرم إبرة، هب منتفضا وفي يده دبوس فرخة، ربما حين يقف يجد مكاناً له.. عين البني آدم أوسع من النار يـــا حـــامد، وجد نفسه وحيدا، وسعاية لا حد لها، وعلى حد الشـــوف قليل من الناس، منذ برهة كان الجمع الغفير يشغي كالـــنمل، ويغطي الأرض، والله طربقت يا حامد، أزاح عن رأســـه ولملـــم حالـــه ومحـــتاله، وإذا بصوت حاد من آخر الوســـعاية يكاد يخرم طبلة أذنه، ينادي : حامد بن عروسة.. حامد بن عروسة.

.. بصوت طويل ممتد..... جايلك يا خويا.

ـــ احضر ميزانك يا حامد.

لـــم يســـتطع أن يحصي عددهم، ولا شغل باله.. جابت

آخـــرها يـــا وله، تحلقوا حول الميزان، يشبه ميزان مضرب الأرز الذي توزن عليه الأجولة.. قائم حديد، وله رمانة بنية اللـــون من كثرة الاستعمال، تتحرك يمينا وشمالا، علقت قفة في الناحية اليمنى ومثلها في اليسرى، مصيبة سوداء لو كان مـــثل ميزان عمك الحاج قرد الذي يغالط دائما وبإصرار في ميزان أجولة العائلة.

تقـــدم ناحـــية القفـــة اليمـــنى خلسة، يكاد يسمع صوت مفاصـــله، تعلـــق بقائم الميزان كي يرى ما بها، دفعه أحدهم بقوة بعيدا.

.. يا بني دي حسناتي وعايز أشوفها.

لـــم يكـــترث لـــه أحد، وجوه محايدة، ليست طيبة، ولا شـــريرة، أوقفوه في نص الميزان على الدرجة الحديد المعلقة بـــه وضـــبط أحدهم ــ غير الذي دفعه ــ رمانة الميزان، لم تكـــن به رهبة، أحس أن الخرس شل أعضاءه وألجم لسانه.. راحت عليك يا بن عروسة طول ما أولها عزرائيل، تحركت الرمانة، واصطدمت الريشة بصرير القائم الحديد، دمه نشف، تأرجحت الرمانة ناحية اليمين وعادت سريعا إلى الشمال، ثم

مالت فجأة وأخذت تتدرج ببطء، قلبه وقف وعينه تسمرت، والرمانة بطيئة، تستوي قريبا من المنتصف، روحه تتأرجح معهـــا، وقدمـــاه تكلبشتا في السلمة الحديد، والرمانة تشاور نفســـها، تـــتململ مهـــتزة، تهـــزه وتعصره حتى سكنت في المنتصف تماما، صرخ ــ لا يعرف من أين ــ بكل ما يملك، دفعـــه الـــذي دفعـــه من قبل.. اتلهي على عينك، رماه على الأرض، انتفض كابن العشرين، وهب واقفا على حيله:

.. على الطلاق ما انا داخل النار.

ــ ولا داخل الجنة.

.. روح، إلهي تندعك في دماغك.

كالغـــزال يعـــدو، خفـــيفا متراقصا، يزهو برأسه يمينا وشمالا، لم يعد يهمه الشمال ولا غيره، أرض واسعة لا أحد بها، مضيئة بنور لا يعرف مصدره، ومن بعيد لاح له طابور طويـــل، توقف فجأة، الطابور يبتعد حتى يكاد يختفي، جلس علـــى الأرض يـــأخذ نفسه، شبك يديه على ساقيه، لو معك حسنة، حسنة واحدة، راحت السكرة وجاءت الفكرة يا حامد، لـــو كانـــت معك لطب الميزان ورجحت الكفة اليمنى، طول

عمـــره وهـــو في اليمين، يا خبر أسود لو كان فكر مرة في اليسار، مرة واحدة فقط، الحقيقة أنك فكرت كثيرا في اليسار يـــا حـــامد، حتى ولو لم تتخذ قرارا، فكرت وسمعت إذاعة لندن، وشتمت المسلمين، وسخرت من مشايخهم كثيرا.

لا يـــا حـــامد، المسألة ليست كذلك بالضبط، ليست في الكلام الكبير يا بن خالي، المسألة في الفعل يا حامد، لو أنك قسمت دكر البط مرة واحدة على أخوتك ـــ حتى ولو لم تكن عادلا ـــ لو أعطيت القونصة والكبدة مرة لنميرة، مرة واحدة من نِفْسها، لو لم تعنفها حين أعطتها لأمك من وراء ظهرك، وادعت أن القطة خطفتها، لو لم تحرمها من الحوايج في ذلك اليوم عقابا لها، لو لم تقصر ذات يوم عن درس العصر، حين كنـــت تتكاســـل أيام الشتاء، الأمر يحتاج إلى حسنة واحدة، حسنة صغيرة يا حامد، كان يمكن أن تلحقك لو لم تأخذ فراش الجـــامع بجريرته، وأشفقت على أولاده وأولاد أخيه اليتامى الذيـــن يجري عليهم، لو لم تسخر من ابن عمك في المسجد، لا، لا يا حامد، انهم يستحقون وأكثر، أفسدوا البرية، وأخذوها علـــى هواهـــم، ربمـــا لو فعلت ذلك، وأكثر من قبل لجاءتك الحسنة تجري وحدها.

انتبه على شارع جانبي يكاد نوره يفيض على الشوارع المجاورة، بسرعة دخل إليه، وجد أمه عروسة، تجلس ممددة ساقيها، سعيدة، وعلى وجهها ابتسامتها المطمئنة إياها.

.. أمه، أنا حامد حبيبك، أنا سرقت عليك البيض والدرة الاصفر من ورا أبويا، وجبت لك المعسل.

ـــ وعايز إيه يا ضنايا.

.. حسنة واحدة يا أمه.

ـــ أبعد عني يا حامد.

.. أنا سرقت عليك أيام المجاعة علشان تاكلي وتعيشي.

ـــ أبعد عني يا حامد.

.. حسنة واحدة بس.

ـــ والله لو عملت السبعة.

.. طيب نص حسنة.

خـــبر أسود ومنيل بنيله، إذا كانت أمي لم تعطني حسنة واحـــدة، وبقجتها أمامها متروسة على آخرها، تكاد الحسنات تـــنط مـــنها، من يعطني إذن.. وقعتك سوداء يا حامد، ليس ســـوى النادي، أخوه وحبيبه، حامد لم يحب أحداً مثل النادي،

ورغـــم أنـــه الكبـــير، إلا أنه كان يتأخر ويقدمه على نفسه، صـــحيح أن ذلـــك لـــم يكن يحدث وهم جالسون على طبلية العشاء، لكن النادي نفسه عفيفة، مسامح ومترفع، وأفنى عمره فـــي خدمـــة برية عفنة، ولابد أن بقجته ممتلئة عن آخرها، يكفـــيه مـــا فعله من طرق، ومدارس ومصنع حتى لا يجوع الناس، يكفيه أنه وقف بجانب كل ضعيف، لا، لا.. بل يكفيه أنه لم يترك قويا يأكل حق ضعيف، وأيامه الأيام الوحيدة التي شم فيها الغلابة نفسهم.

.. يا نادي يا خويا.

ـــ إحمد ربنا يا حامد أن أخوك دخل الجنة.

شعر بالكسوف يغطيه من ساسه لراسه، حتى أخوه غير الشـــقيق أدار وجهـــه، كـــز علـــى أسنانه : إذهب لأخوتك الأشقاء.. حسنة بمليم يا حامد، حسنة واحدة، وتصل للبريمو، وتأكل الديك الرومي وحدك، والنساء مثل لهطة القشدة حولك مـــن كل ناحية، فلتبحث عن أبيك، رغم أنك كنت تخاف منه خـــوف العمـــى، لكن المسألة تتجاوز الخوف ـــ الحمد لله أن نجاك من التهلكة ـــ وزيادة الخير خيرين.

غالـب نفسه، لكنه لم يستطع أن يذهب إليه، هز رأسه، وجدتهـا.. لم يبق إلا الشيخ إسماعيل مؤذنك، والوحيد الذي يـأكل في دارك دون حساب، ولولا أنك تحبه ما ذاق النعمة عـندك، حتى ولو كان أعز قريب لأمك، وحتى لو كان من طرف عزرائيل نفسه، ولابد أن إسماعيل لديه حسنات كثيرة تمـلأ قفف البرية كلها، يكفي أنه حرم من نعمة البصر، ثابر وصـبر، وأخواله العمد أكلوا حقه في ميراث أمه، وهو يتيم، وعـاش كفـيفا عفـيفا لا يسأل أحدا وإن تدلل، صحيح أن ضراطه كاد يحرق الحصيرة مرة، والحِرام مرة أخرى، لكن لا تثريـب علـيه، لـم يكن أمامه إلا العدس والكرنب، وإن وجدهما يكون أبو زيد خاله.

راقـته الفكرة، ومخمخت في رأسه، دار من فوره يبحث عـنه، وجـد الطابور الذي رآه من قبل، وقد تناقص عدده، أناس عرايا في يد كل منهم ورقة صغيرة، كأنها تذكرة قطار، أحـس أن سـاقيه تتحركان ببطء كلما أقترب من الطابور، وقدماه تتثاقلان، عقد عزمه، ربما كانوا يوزعون شيئا، انضم إلى الطابور من منتصفه تقريبا، سأل الذي يقف أمامه، أجابه

بأنـــه طابور الجنة، يكاد يلتصق بالأرض، يتحرك بصعوبة شـــديدة، والواقفون خلفه في الطابور، يتعدونه ويمرقون منه ســـريعا، أخـــيرا، وجد نفسه وحده في الطابور، أمام الباب مباشرة، جف حلقه وساقاه تسمرتا، سأله الواقف على الباب، المتين البنية:

ـــ تذكرتك فين ؟.

.. تذكرة إيه ؟!.

ـــ تذكرة الدخول.

.. تذكرتي.. تذكرتي، وقعت مني، حأدور عليها وأجيبها لك.

ضربه تحت بزه الشمال.. جايين تكدبوا هنا كمان.

نميرة تربت بحنو عليه وتسأله:

ـــ يعنـــي ما لقيتش الحسنه يا حامد، ولا مع أي حد من البرية خالص.

يتحسس صدره بكلتا يديه، يؤلمه بشده من ناحية الشمال، أسفل بزه تماما.

.. همـــا ولاد الكلب دول يا نميرة، كانت عندهم حسنات من أصله.

عــند كوبــري المصــرف، وقف ينتظر سيارة تقله إلى الغبايشه، التاسعة والنصف تقريباً، الوقت لا يزال مبكرا على صلاة الجمعة، كعادته يعمل حساب الوقت بالثانية.

يــوم الجمعة تكون السيارات شحيحة، والسائقون سهروا يحششون حتى الصباح، رفع ذيل كاكولته متحاشيا برطة جلة مفرطحة على الأرض، برطم بصوت عال، تمشى خطوتين، وركن ظهره على المقعد العريض للكوبري، أخذته عينه إلى لافــتة رخامية قديمة، التقط طرف عود حطب جاف، وأخذ يعبــث فــي ثناياها، احتشدت بالتراب ونثار الجلة.. كوبري مصــرف أبو شبارة.. قطيعة أبو شبارة والكل كليله، الريحة وريحة الريحة.. حمولة ٥ طن، لم يتبين عام انشائه جيدا.

رفــع بصــره وأشــاح بيده إلى سيارة مسرعة تخطته، وخلفــت وراءهــا غبارا كثيفا، كانت الشمس قد خرجت من منامــتها، خلــع العمامة، ومسح عرق جبينه المختلط بغبار الأتربة، تمتم ــ ولا أحد حوله ــ آه يا زواني يا ولاد الكلب، سواقين حوش بصحيح.

تجلجــل ضــحكته الساخرة التي تحضره عند أي شيء يضايقه، أو يستعصى عليه.

فــي طلعة النهار، أوقف نميرة في وسط الصالة الفسيحة لــداره، دار كبيرة بالطوب الأحمر والمونة الخضراء، ورثها عــن أبيه، وأربعة أخوة، تزوجوا وتركوا له الدار، وصورة أبيهم ببروازها السميك، هو الكبير، وهو شيخ الجامع، تزوج نميرة، أم العيال والبركة الكبيرة، حوطت عليه وبرت بأهله، أوقفهــا، دار حولها ثم ضبط أكتافها، وضع طربوش العمامة فــوق رأسها، وفي تؤدة أخذ يلف الشال عليها، يرشق دبوسا هــنا، وآخر هناك، يشكشك نميرة مرة بعد أخرى، وهي بين الصراخ والضحك.. وبعدين معاك بقه يا حامد.

وهـو فـي هيئة أبي الهول، وجهه صامت صامت أمام
ر مها، وحين ينتهي من آخر دبوس، يتحول فجأة لهيئة ثعلب
سـان، يخفـض حاجبا ويغمز بآخر، يربت عليها ويقول :
ر خيرك يا بت يا نميرة.

عـندها تطلق زفرتها، وانفراجة مباغتة تعم أساريرها،
ناهب لأخذ العمامة من فوق رأسها، وفي لمح البصر يلطشها
علـى وجههـا، وقـبل أن تطلـق صراخها يكون قد أخذها
بالحضـن، وهو يقهقه عاليا كجمل طلوقة، تقرصه وتتملص
منه، تنزاح عنه وهي تقول :

ـ وبعدين معاك يا حامد، مالكش حق يا حامد.

.. ده بركة يا نميرة.

ـ خليلك البركة بتاعتك يا خويا.

كاكولـته علـى حافـة السرير، يمشطها بالفرشة التي
ا ـتراها وقت تعيينه، يسوي قفطانه المضلَّع اللامع، يدندن
و شيحة لطه الفشني، يتعجب منه دائما، كيف واتته الشجاعة
ر ك قراءة القرآن إلى غناء التواشيح.. أما راجل صهبنجي
صحيح.

هــو الوحــيد الذي نافس مصطفى إسماعيل في زمانه، يضــع العمة فوق صدر الكاكولة، وعندما يطمئن على تمام عدتــه يطلــق جاعورتــه.. يا بت يا سناء.. يا بت يا سناء، وســناء أعــدت عدتهــا من ليلة أمس، ملأت البلاليص من الحنفية العمومية، ووضعتها في زاوية الحوش الذي يلاصق الــدار مباشــرة، يفصــل بينهما باب كبير، به خوازن البط والفراخ والوز، أما ديوك الملطي فهي لا تبيت داخل خزانة، تســرح فــي قلب الحوش، تقلب جفنها الرامش دوما وتلمع عيناها ليلا حين ترى العفاريت أو الشيخ عزرائيل كما تقول نميرة.

تحمــل ســناء الطشــت والإبريق النحاس، تصب عليه ليتوضــأ وضــوء الجمعــة، وقبل أن يغسل يديه، يرفع ذيل جلــبابه القصــير دوما، يربطه عقدةً حول وسطه، يبدو سلط ملــط، يــا مــولاي كما خلقتني، ذكره في سابع نومه، وهي تصب الماء عليه ليطهره، تدير وجهها إلى ناحية بعيدة، تخنق ضحكتها، وتحاول أن تمسك نفسها، يترجرج جسدها فتنحرف

المياه عن مسارها، متناثرة من بزبوز الإبريق بعيدا عن ذكر الشيخ.

.. رفعـــي المـــيه واعدلي إيدك يا بنت الرفضي، فالحه تسهري مع بن المناصرة لانصاص الليالي.

ينـــتقل فـــي خفـــة من تدليك ذكره إلى محاشمه، ينفرط جسدها ويندلق الماء دفعة واحدة من حلق الإبريق الذي يسقط بدوره على الطشت النحاس محدثا فرقعة عالية، يترك ما بيده ويجـــري خلفهـــا، صوته يجيب آخر البرية، بينما دكر الوز يرفرف بصوت غليظ في خزانته.

.....

ســـيارات أولاد ال...، لا تُعـــبِّره، يتحسر على سواقين زمـــان الذيـــن كانوا يتوقفون من نفسهم لمجرد رؤية عمامة حمـــراء، دخل المشايخ الاتحاد الاشتراكي والاتحاد القومي، وأفسدت السياسة صورتهم لدى العامة، وهو من يومه لم يكن

يكـــترث لذلك، يسخر من القداسة التي يرسمها الشيوخ على وجوههم، ويخرج لسانه للعوام الذين يمرمطون أنفسهم فيها.

أراح مؤخـــرته علـــى سور الكوبري، بعد أن رفع ذيل الكاكولـــة والقفطان، بان جوربه وحذاؤه الأبيض... لم يغيره مذ كان إماما لمسجد الدقي في بداية مشواره كإمام وخطيب، الحـــذاء كما هو كأنه خرج لتوه من عند القزاز، يلمعه بنفسه من آن لآخر ويلبسه مع نظيره الأبيض أيضا، مرة أو مرتين فـــي السنة وفي الصيف فقط، ولا يعتقدن أحد أنه أهلك حذاء يوما ما طالما ظل بعيدا عن رجل ابنه الدمرداش.

مـــياه المصرف قليلة غائرة تتجمع في المنتصف تاركة جانبـــيه، منحســـرة عـــنهما، وطرح المصرف من الناحيتين جـــدب، تنبـــت عليه جيوش من ذيل القط، وبعض الخضرة الشـــيطاني يلقفهـــا الـــبط بمناقيره، في طريقه لالتهام العدس الأخضـــر الطافـــي على سطح المياه، يمكث طول النهار ثم يعود لينام ليلا بالطرح، في جماعات تعرف بعضها بعضا.

يـــنام البط بالشهر، لا يقترب منه أحد، ولا ينقص عدده، إلا عندما تأتي إحداهن لانتقاء دكر معتبر من أجل ضيف أو

ملهـــور، أو إقامة ليلة لشيخ ودراويشه لجلب الخلف، أو لمنع النحس وفك العكوسات.

يكـــز الشـــيخ على أسنانه، انهد حيله، وهو يحاول إيقاظ الدســـرداش كي يتهيأ للصلاة، ينظر مغتاظا للبط الذي أصبح ،ســـلية الدمرداش في الرايحه والجاية، يكتم في قلبه، ويربط علـــى بطنه زلطة، يكاد يموت كمدا، كيف يقف على المنبر لينهي الناس عن السرقة، وابنه سرق ربع بط البرية وحدها، ، النسوان على باب الدار كل صباح تقريبا، يشتكين الدمرداش ، يطلبـــن العـــوض، ونمـــيرة تطيب خاطرهن حتى لا يطلع صـــوتهن في الشارع ومعه الفضيحة، والشيخ يدفع التعويض ،ـــارة، ويعطـــي إحداهن بطة تارة، والنسوة بوجه مكشوف ،فاصلن، يردن دكرا، وزوجة ربيع الجشع تريد ذكرا مجنسا ا، خضـــاريا، أو قيمته نقدا، مع أنها وزوجها وعيالها لا بط ا، بهم، أو فراخ من أصله.

وقـــف على حيله فجأة، اصطدم دون قصد براغب، وهو ،مســـل علـــى كتفه جوالا مكبوسا على آخره، أشاح بوجهه ،عنه.

ـ السلام عليكم يا عم الشيخ.

ودون أن ينـتظر الـرد مرق بسرعة كأن كلبا عضه، وأنات مخنوقة تتسرب من الفتحات الضيقة للجوال.

.. عليكم السلام يا حرامي يا بن الحرامي.

.....

السـائقون أولاد ال ... لا يـتوقفون، أخيرا حن أحدهم، تـيوتا وشخصـان بجوار السائق، ترجل الذي على اليمين، وحلف باليمين أن يركب الشيخ قدام، ودون أن ينتظر ردا قفز فـي الهـواء الطلق بجوار بقرة مربوطة جيدا في الصندوق الخلفي.

ـ نورتنا يا با الشيخ، على فين أمال.

.. رايح الغبايشة يا ولادي.

ـ ملقيتش أبعد من كده، ما تيجي تخطب عندنا النهارده.

الغبايشـة، هي القرية الأخيرة على طول الخط، تلامس البحيرة تماما، يجتاحها الغبش شتاء قبيل المغرب حتى ضحى

اليوم التالي، تعيش على صيد الأسماك وبيعه للقرى المجاورة، لا كهرباء، لا ماء، فقط نصف طريق مترب، تأتي عبره السيارات، تنقل السمك لبندر دسوق البعيد، الغبش الذي يغطيها، يمنعها على غير أهلها، ناسها لم يخرجوا منها، ولا غامروا، تأتي إليهم المدينة تحت إبط تجارها، وعلى وقع عجلات سياراتهم، يبادلون ببضاعتهم القماش والشاي والسكر.

تسقط السيارة في نقرة، وتصعد من دحديرة، وعمامته تصطدم بالسقف، يكبسها جيدا وصوته يعلو : مدد.. مدد يا أبا العينين، مدد، مدد يا سيدي إبراهيم يا دسوقي، يبدو شاردا، وكل حين وحين يرمي كلمة للسائق، تعلو ضحكته بسبب وبدونه، يتفحص يافطات القرى: برية أبو غانم، برية الملاحة، الروضة، الشرنوبي، عزبة عبد اللطيف أبو حسنين.. حتى عبد اللطيف المفش الحرامي له عزبه باسمه.

قرى كئيبة، بيوت رمادية قصيرة القامة، وحارات ضيقة يكاد الشباك في ناحية ينط على زميله في الناحية الأخرى، برك المياه كما هي من أول الشتاء، ماؤها راكد لا يتزحزح.

جده البحيري الكبير بسلامته كان لصا عظيما، نزح مع قبيلـــته إلى البراري في يوم لم تطلع له شمس.. أرض بور مالحـــة بعيدة عن أعين الحكومة وعن شنب القاضي.. تلوح منه ابتسامة خفيفة يقطعها السائق :

ــ إشمعنى الغبايشه يا با الشيخ ؟!

وهو على لحف الغيط، كعادته كل يوم.. والوقت صفاري شمس، بجلبابه القصير إياه، بيده صفيحة فارغة، وعود حطب ناشـــف يدق به.. ينادي عمال على بطال.. هوي، هوي، كي لا تســـرق العصافير نبتة الأرز الطرية قبل أن يشتد عودها، رآه قادما.

ــ السلام عليكو يابا الشيخ.

.. وعليكو.

ــ ســـايق علـــيك النبـــي، وحياة مقام إبراهيم الدسوقي يـــا شـــيخ تخطـــب عندنا الجمعة الجاية، عازمك أنت واللي تحب.

.. علـــى طول كده من الدار للنار، أخطب عندكو فين، أنت منين يا بن خالي ؟

ـ أنا تاجر تموين يا شيخ حامد، من الغبايشه.

أغمض عينيه وأطال، خبط كفه على صدره مرات.

.. يـــا خبر أسود، الغبايشه حته واحده، أرجع أجيب من اول زرع وحصد، دا انتو يابني بتغلطوا في الفاتحه.

عند المعدية الصغيرة لم تكن هناك يافطة، الغبش والملح أنبا عليها، ترجل من السيارة، ودعوه وانصرفوا ضاحكين.

ترجل في حارة ضيقة، متعرجة، نتوءات من أكوام طين متحجرة تجبر السائر أن ينتحي جانب الطريق بحثا عن مدق، الشـــيخ يحب الشتاء وتوابعه، المرقه الساخنة، ولحمة الرأس مرورا بالبرايم المعمرة، وانتهاء بالديوك الرومي، لكنه يكره النتوءات التي تخلفها الجرارات الزراعية في الطرق الترابية التي أهلكها المطر شتاء، تظل برؤوسها الحادة أول الصيف، إلـــى أن تأتـــي عليها الأقدام والسيارات العابرة بعد شهور، عندها تكون العواصف والزعابيب قد أعلنت قدومها، وتعود ربمـــا لعادتهـــا.. لكن ما باليد حيلة، والجرارات بمقاطيرها الكبـــيرة وعجلاتهـــا الضـــخمة هي الوسيلة اليتيمة للوصول للقـــرى البعـــيدة في الشتاء، وإلا انقطعت عنها سبل الحياة.. تنطبع ابتسامة ساخرة على وجهه، يكاد يضحك بصوت عال،

يتذكر نميرة وهي تودعه صباحا بعد أن برئت من الشكشكة ولطشة الأسبوع.

ـ ما لقيتش غير سفند القرود دي يا خويا تخطب فيها ؟!

انتبه على امرأة تقذف ماجور مياه في وسط الحارة، بسرعة البرق شد ذيل كاكولته وقفطانه، حمد الله أن الطرطشة لم تصل إليه، جارتها تطل من شباك مقابل.. يا بختك، طول الليل ولعه اللمضه، يديله الصحة ياختي، قالت الأخرى بصوت خفيض: هما الرجاله قادرين يا حبيبه، وحياتك هي مره واحدة ما في غيرها.. عندما وصلهما صوت نحنحته، صكتا الشبابيك بسرعة الريح، بسرعة عبرهما وزر عمامته يتأرجح خلفه.

استغرب حين لم يجد أحدا من الرجال في انتظاره، أو صبية تدله على طريق الجامع.. عزومة أونطه والا ايه، أمال فين ولاد الهرمة دول.

بفطنة العارف اتجه إليه بعد أن شاهد المئذنة عند وصوله، راعته الهوجة التي رآها، القرية عن بكرة أبيها في

الوسعاية أمام الجامع، حلقة غير منتظمة، عندما لمحوه بدأت الأصوات العالية المتداخلة في الهبوط تدريجيا حتى اختفت.

اندفعوا نحوه، أخذوه بالغمر، يقبلون يديه، والبعض يتمسح به، نصفهم بهدوم الغيط، والباقي بالبدلة العبك لزوم الصيد، أحدهم عبطه من وسطه، وانهال عليه تقبيلا ــ النبي جه ياولاد، النبي جه يا ولاد، أزاحه بقوة.. نبي في رقبتك منك له، راحت عينه إلى وسط الحلقة، فتح فمه على آخره، راغب الذي رآه من ساعة فقط، ملقى على الأرض، مكتف بالحبال، وآثار علقة محترمة على وجهه، أخذهم شيء من الكسوف، وبدا أحدهم دون اتفاق يفك وثاقه.

قبل أن تبدأ الخطبة، اختلى به مؤذن الجامع، أفهمه أن راغب حط في القرية قبل قليل، وفرد جوالا به عشرون دكر بط، ليبيعها للمصلين، راح يخرج دكرا وراء آخر، اكتشفوا وهم فاغرو الأفواه، أن البط جثة هامدة ، اختنق في الجوال، وراغب أسقط في يده، أخذ يقلبه الواحد تلو الآخر كالمسعور، لم يكن من الصعب أن يستنتجوا أن البط مسروق، وأن

راغـب حشـره فوق بعضه فلقى حتفه، فاستحق أن يوثقوه، ويعطوه المليحة.

.. أنـتوا عارفيـن ربنا خلق آدم ازاي يا بتوع الغبايشة يا أمراء؟.

كـان الجامع قد امتلأ عن آخره، أكثرهم من الصيادين، والباقـي فلاحـون أتـوا من القرى المجاورة، لم يبق مكان للصـبية، تشعبطوا على شبابيك الجامع من الداخل والخارج، راح يتفحصـهم، الناس بسحنة واحدة كأنهم ولدوا لأب واحد وأم واحـدة، بأنوف مكعبرة، وجوه عشش فيها الكد، تتضح بالتعب والشقاء وكثرة الخلفة، استغربوا أنه لم يصعد المنبر، راح يـتجول وسـط المصـلين في الصفوف الأولى، لكزوا بعضهم، وحين علت همهمتهم، قطع كلامه: اللي حيتكلم كلمة واحدة حأطلعه بره الجامع.

.. ربـنا قال يا جبريل هات لي أنضف صولة طين في المحيط الأطلنطي.. انتوا عارفين المحيط الأطلنطي ده قد ايه ياولاد.. هه، أكبرمن بحر السخاوي الغول ده ميت مرة.

ـــ ياااااه.

انفتحت الأفواه على آخرها، ولم تعد.

.. بحـر السـخاوي إذا كـان عرضـه عشرة تمتار، والأطلنطي ده ييجي أكثر من خمسة سته كيلو بالعرض.

راحوا يضربون كفا بكف.

.. جبريل خد ديله في سنانه، قب، غطس، جاب أنضف صـولة، قـال لـه حاسب، حتحطها فين؟، حطها في الحتة النضيفة دي، انت عارف أنا حأعمل منها مين ؟.. آدم.. آدم.

غلف الصمت فضاء الجامع فاستأنف.. انتوا مش عارفين ليه تكم عند ربنا يا ولاد.

.. نـاداه مـرة تانـية علشان يجيب صولة غيرها من المحيط الهندي..

.. انتوا عارفين المحيط الهندي ده قد ايه بقه يا جماعة.. علشان تعرفوا انتوا غاليين عند ربنا قد ايه، يا بتوع الغبايشة والسراء، أكبرمن بحر النحال عشرين مرة، أقله.

كانـت الأفواه قد تعبت من الفتح والقفل، وبانت الأشداق والأسنان الفضية، وغطت الدهشة ملامح المكان.

بحـــر الـــنحال هو البحر الكبير الذي يروي كل البحار والـــترع الأخـــرى، لم يره أحد من الحاضرين، يعشش في أذهانهم ويكبر مثل أمنا الغولة وتأتي معه النداهة أيضا، وهو الذي كان يأتي بالسردين النيلي الملفوف والطمي.

.. وبعديـــن جمـــع الملايكه، الملايكه نزلوا على الطين حتـــتك بتـــتك عملوه معجنه، وسابوه كام يوم لحد ريحته ما طلعت، انتوا عارفين الطين لما يطول، يعطن وريحته تطلع..

اكتســـى وجهه بمسحة من الجد وغمرته حدة .. بسم الله الرحمن الرحيم (ونفخنا فيه من روحنا).. فووووو.. فووووو

لم يأكل الشيخ أكلة السمك، اختلفت العائلات فيمن يأخذه للغـــداء، واحـــد في الزحمة قال: علي النعمة من نعمة ربي الصـــلاة دي باطلـــه، جملته خرمت أذن الشيخ، لكنه فوتها وضرب طناشا عليها، واحد غيره حلف بأيمانات المسلمين أن هـــذا الشـــيخ خريج نفسه ولا عمره دخل الأزهر ولا شافه، واحـــتدم الخلاف، وانتهى الأمر بجملة من هنا، وأخرى من

هـــناك وشتيمة من هنا، وشومة خفيفة من هناك، قامت الدنيا على بعضها وابتدأت المعركة.

.. أيـــه اللـــي جابك هنا يا بن عروسه، ومين اللي شار عليك بالشورة المهببه دي.

نفـــذ بجلـــده، انســـلت مـــن خلف الجميع، واخذ يجري بالمشوار، وكما جاء وحده، خرج وحده.

في الحارة الضيقة تعرضت له المرأة التي رمت ماجور المياه.

ـــ على فين يا سيدنا الشيخ، لسه ما شبعناش منك، سايقه عليك النبي...

.. أنا اللي سايق عليك النبي.

ـــ بركاتك، وحياة النبي تعمل حجاب لجوزي.

يلتفت وراءه ويحاول أن يمرق منها.

.. ماله يا ست ؟

ـــ صـــحته دايمـــا مدعـــبلة، وبعافية على طول، ونفسه مسدودة، حجاب يخليه جامد، ويوقفه على رجليه على طول.

.. يـــا خبر أسود ومنيل، على آخر الزمن أعمل أحجبه، خليه ياكل كومي في السمك يا ست.

ـــ طب والحجاب !!

ينهب البقية الباقية من الحارة، عند موقف السيارات لمح راغب يداري خزيه ويقفز في الصندوق الخلفي لسيارة عابرة توقفت له.

كالريح نط بجوار السائق، راح يحثه على الابتعاد سريعاً قـبل الســلامات والطيبات، أمضى الطريق صامتاً، عابساً، حريقة دخان، يشعل سيجارة من طرف أخرى.

هبط دون أن يدفع الأجرة، اصطدم بأبو الفصل الأعرج بـــرجله الواحـــدة وعصـــاه الخشبية، أبو الفضل الهارب من جـــريمة قـــتل في الصعيد، حاولوا الثأر منه، حين طخوه لم يقـــتلوه، أصـــابت رجلـــه الغرغريـــنا من كثرة الرصاص، قطعوها، خاف من المكتوب، هج إلى البراري في آخر الدنيا، يعيش في برية أبو عيسى، قرية الشيخ، يتركها ليلة الجمعة، يتملكه الهاجس بأنهم سيصطادونه يوم الجمعة بالذات، وساعة الصلاة تحديدا، ينهشه الخوف، يبيت كل ليلة جمعة في قرية

أخرى، اعترف يوما للشيخ بأنه حرامي قديم، لكن ربنا تاب عليه ولولا حكاية التار دي.

ــ حمدللـــــه ع الســـلامة، عملـــت إيـــه فى الغبايشة يا با الشيخ؟

.. توبة من دى النوبة، هو انت صليت فى البلد يا وله؟

ــ كانـــت صـــلاه ولا كل صلاه، وهى الصلاه تنفع من غيرك يا با الشيخ بالأمارة.

.. ليه، هو حصل إيه يا أبو ....

لم يكمل جملته، ميكروفون الجامع يلالي على الترعتين :

ــ فـــيه رومية قايمه من على البيض، بتاعة نجاح بنت ابو شبارة.

كـــتم أبو الفضل ضحكته حين رأى الوجوم يغطي وجه الشيخ.

ــ إليكم هذا النبأ الهام.. إليكم هذا النبأ الهام، فيه عشرين دكـــر بط ضايعين بتوع الحاج كمال أبو شبارة، كانوا نايمين فـــي المصـــرف البارح، واللي يلاقيهم أو يدل عليهم له دكر حلاوة،

كـــان راغـــب قد زاغ عند مدخل القرية، والشيخ يتقدم أبو الفضل الذي تجمع حوله الصبية، يصفقون وينادون.

ـــ يا ابو الفضل يا ورك الديك

لا بتخلف ولا بتحيك..

توقـــف عـــند بـــائع السمك، نادت عليه الفنجرية بائعة الخضار والفاكهة.

ـــ يـــا شـــيخ حامد، مَزْمِز بعد السمك.. كيلو بلح حياتي علشان خاطر عيونك.

لملـــم الأكـــياس، تحســـس جيب كاكولته لدفع الحساب، اكتشف أن المحفظة طارت.

كـأن أحدا لطعه على قفاه في غرفة مظلمة، خازوق أتاه من حيث لا يحتسب، طعمها مر يا حامد.. تتسرق يا حامد، لم يكن من السهل عليه أن يتقبل الأمر، ما بالك أن يبوح به، وهو من هو.. ابن من.. ابن البحايرة الكبار.. شراطي الجيوب، وحرامية الكحل من العين، الذين أسسوا ـ ولا فخر ـ مهنة السرقة في المهجر، وضعوا لها قواعد وأصولاً وتوارثوها أبا عن جد كما يليق بتركة حقيقية بعد أن تركوا بلادهم البعيدة.

يتذكر في هذه اللحظة جيدا ـ ما دأب أبوه على ترديده عن أجداده القريبين.. نزحوا على عجل من قريتهم كفر البحايرة التي تقع في زملم محافظة بعيدة، لعلها على الأرجح المهلبية، كان أبوه حريصا ألا يتحدث أحد بسوء عن أجداده،

يقطـــع دائما بلهجة حادة ووجه صارم أنهم هاجروا هربا من حاكم ظالم وبحثا عن الرزق في مناطق غير مأهولة، مؤكدا علـــى كلامه بأنهم عمروا البلاد التي حطوا بها، لكن الحقيقة أقـــوى مـــن نار الفرن، فاحت رائحتهم بعد أن وطأوا أرضا جرداء، ليس فيها من سبل العيش سوى الهيش الذي يتطاول وسط ملوحة البراري. ويؤمّن أبوه على كلامه بأنهم لو كانوا حرامـــية فاسدين لما استطاعوا أن يستصلحوا أرضا عمياء، ويجمعوا طينا ويكونوا أسرة وعزوة كبيرة.

يعـــرف أن أباه رجل صادق، هو أول واحد في المنطقة قرب من عالمية الأزهر الشريف، بل كان المتعلم الوحيد في أرجـــاء الـــبرية، وأنهم الفرع الطيب من العائلة العريقة في السرقة، لذا يحسس دائما على وجيعته.

وبمـــا أن العرق يمد لسابع جد، فالعائلة لا تخلو في عز نظافـــتها من حرامية صغار مثل ابنه الدمرداش، ناهيك عن عمـــه الشابوري الذي خرج من السجن بعد أن قضى تأبيدة بمـــنافعها، هو الوحيد المتبقي من الرعيل الأول، أدى المهمة على أصولها، وحين آن أوان الاعتزال استقال بشرف، أو

أقالته الحكومة، لذا يجلس مرتاح البال على بسطة دكان عبد السلام أبو السيد في العصاري، .. يحكي والفخر ينط من عينيه أنهم في هجرتهم الأولى شربوا المر، هاموا على وجوههم، يسرقون ما يصادفهم من أغنام وأبقار وغيره، وإن لم يتيسر الأمر يلطشون الوز والبط السائر في الطريق، أو النائم على جرفة ترعة هنا أو هناك، ولم تكن الأصول تمنعهم بالطبع عن سرقة بعضهم بعضا، ..يسوقهم الذي يسوق السحاب، وعندما حطوا رحالهم،.. وجدوا عائلات أخرى تعادلهم في النسب والشهرة، قد سبقتهم إلى البراري.

كانت البراري بحق هي مخبأ الحرامية الأول، ومثواهم الذي تعجز يد الحكومة عن أن تطال أحدا فيه، ولم تستطع لسنوات عديدة أن تقبض على جثة قتيل يوحد الله،.. يتم دفنه هناك في الأعالي في تربة الغبايشة المالحة المتاخمة للبحيرة، ليذوب جسده فيها، ويتحلل قبل أن تشم الحكومة خبره بأعوام.

.....

استقرت العائلات في البراري، وصار لها بيوت من الطين النيئ والبوص، وزرائب لمواشيها، وبدأت النعمة تدب في الأراضي المستصلحة واقتضت الحال أن يكون لكل عائلة كبير يقوم على شئونها ويحميها، يشرف على إعالة بطونها، والرأي رأيه، والمشورة مشورته في مسائل الزواج، وتمثيل العائلة في مجالس المصالحات، والصرف على كل كبيرة وصغيرة من إبرة وابور الجاز حتى كسوة السنة.. العائلة تزرع، والكبير يحصد، يقوم على تصريف الناتج في أسواق مدينة دسوق، أقرب المدن إليهم، يقبض الإيراد، يدبر شئونه إلى مطلع الإيراد القادم.

ولأن طبع البني آدم لا يخرج إلا بعد طلوع الروح، عادت ريما مرة أخرى لعادتها، أخذت السرقة تفعل فعلها بين العائلات، شاعت سرقة المواشي في انصاص الليالي، وسرقة خزين السنة من أرز وقمح وذرة، واقتضى الأمر أن يكون لكل عائلة حرامي معتمد يدافع عنها ضد حرامية العائلات الأخرى.. تجاوزت سلطته وصورته صورة كبير العائلة في كثير من الأحيان، الأمر كله لا يتجاوز قلباً ميتاً وبندقية، أو

ردا بروحين أو مقروطة بعين واحدة مع شنب محترم يرتفع بالصـــقر من الجانبين، وملفحة تغطي نصف الوجه، وتبين النصـــف الآخـــر، والويل كل الويل للعائلة التي لا تتشرف بوجـــود حرامـــي فيها، تصبح مطمعاً ومرتعا وأرضا طرية للجميع.

واقتضى الميثاق المقدس ــ غير المكتوب بالطبع ــ ألا يتعدى أحدهم على خوازن ومواشي عائلة أخرى لها حراميها الرســـمي، ومن يخرق الميثاق عليه أن يتلقى وعده، ويحفر بنفسه حفرته الأخيرة في رمل الغبايشه المالح.

وبمـــا أن المقادير أتمت نعمتها عليهم، فقد تشرفت عائلة الشـــيخ بوجـــود عمـــه الشابوري، حرامي اصيل لا يشق له غـــبار، ولا تخطئ له طلقة، لذا امتنعت مواشيهم وخوازنهم علـــى الجميع، وكان من حسن الطالع أن تمتعت العائلة دون غـــيرها بوجود حرامي آخر، الفرماوي بن عمه الحاج قرد، بالعـــة أسد، وشنب مهيب، يزر على عينه الشمال، ولد بها، وحتى لا يعايره أحد، أخذ يجهم وجهه يوما بعد آخر ويعبس في وجه الجميع، قتل الديب وشوى كبدته، أكلها جهارا نهارا

علـــى قارعـــة كوبـــري المصرف، وأخذته الموجة في سلك الحرامـــية لـــيعوض عورتـــه وليخشاه الجميع، إلى أن وقع المحظـــور.. خـــرج الشـــابوري صحبة الفرماوي في مهمة خارجـــية، بدت كأنها مساندة لأقرانهما في برية أخرى، وفي الصباح اكتشفوا أن الزريبة قد نقبت، والمواشي أصبحت في خبر كان.

قال الشابوري :

ــ أنا عارفه مفيش غيره، شحلط حرامي الحمير، لا عيل ولا تيل، اقروا الفاتحة على روحه الندل الضايل ابن الضايلة.

الشـــابوري يعرف أن شحلط يكرهه، يشوف العمى ولا يشوفه، يقول عنه إنه حرامي نتن.. حرامي حمير، يسرقها، ويبيعها في السوق البعيدة، وآخره وزة أو بطة.. يتندر عليه في مجالس الحرامية، يكش فيه، ويكشر في وجهه ليمتنع عن قعدتهم في دكان عبد السلام أبو السيد بعد نص الليل.

ــ وابن الهرمة عاوز يوريني انه دكر !!

لـم يكـذب خـبراً، طلع مع الفرماوي إلى زريبة عائلة شـحلط، نقـبوا حائطها، والدنيا نائمة، أخذوا المواشي كلها وأبو قلب ميت خبط على باب وردة زوجة شحلط وقال لها:

ــ بلغي الندل بتاعك أن الشابوري خد البهايم، وان شفت وشه بعد كده حانتف له شنبه.

الطريق طويل والجو بارد، عز الشتاء، كان يمشي أمام البهائم دون أن تطرف له عين، والفرماوي خلفها لا يهتز له رمـش، الأرض موحلـة، والسماء تسح من قلبها وتقول خد يا بو خد وردي، آذان الفجر وصل مسامعهما، انتحيا، توغلا داخـل الغيطان، ربطا البهائم إلى أقرب شجرة، وتوضأ من ماء المصرف المرصرص، لم يجدا عود قش ناشفا يوحد الله، فرد الشابوري ملفحته عند مدخل عشة وحيدة، أخذ الفرماوي يكبر، وعمه الشابوري يتقدمه، يبسمل ويستغفر، صليا السنة، وشـرعا فـي إقامة الصلاة، لحق بهما شحلط على مشارف القرية، أخرج الشابوري المقروطة، طخه عيارين، وهج في الغـيطان سـنتين، والفرماوي وقع في يد الحكومة، وبعد أن وضـعت النسوان خمسة أبطن أنهى العقوبة الخفيفة وخرج،

يعـــود إلـــى السبتية كل سبت مع راغب والمكاوي الصغير وبقية الحرامية، يقفون في صفين متواجهين، كل منهم يصفع الآخر على وجهه وبالتبادل، ينزحون خرارة مركز الشرطة، يذهـــبون بشنب كامل، ويعودون بنصفه، يحلقون لهم النصف الشـــمال أســـبوعا، والنصف اليمين في الأسبوع الذي يليه، والويـــل لمن يتصرف في شنبه بعيدا عن الحكومة .. الشيخ حـــامد يفطـــس علـــى نفســـه من الضحك ويقول بصعوبة: الفـــرماوي الفتك ده ومعه بقية الحرامية كانوا يخرجون من السبتية إلى الشارع وهم يصيحون في نفس واحد.. أنا مره.. أنا مره، في طابور طويل يلف السوق.

غمــزت له الفنجرية ليرسل لها الفلوس مع أحد الأولاد لأنهــا ستسافر بعد قليل إلى الجنابن البعيدة تشتري خضار الأســبوع.. قــال له بائع السمك إنه سيمر عليه في داره بعد العشاء كعادته ليأخذ ثمنه.

فــي الطــريق إلى الدار، أخذ يلعن أبا خاش اليوم الذي ذهــب فيه إلى الغبايشه في آخر الدنيا ليخطب هناك، تنهشه الحــيرة، تأكل قلبه، وتكاد تطفح على جلده البلاء، من الذي جــرؤ علــى نشــل المحفظة والبطاقة العائلية ؟، هل يكون راغــب؟!.. أغلب الظن، نتن ويعملها.. دماغه تلف، يراجع نفســه، راغب في النهاية حرامي عاقل، يعرف تمام المعرفة أن الدمرداش ابن الشيخ يمكن أن يفرتكه، ولا يغيب عن باله أبــدا ما حصل لأبيه شحلط الذي طخه المعلم الشابوري من قــبل، قد يكون واحدا من الذين احتضنوه بالغصب، وعبطوا

فيه عند وصوله للصلاة في الغبايشه.. ما يحزنه ويكوي قلبه أنه كان قد نوى أن يمر على هنية بنت سيدنا ليعطيها المعلوم الشـــهري، لتبر نفسها هي وأختيها كوكب وصفية، وجد باب الدار مغلقا في الصباح، قال في العودة أمر عليهم، لا يعطيهم من باب العطف عليهم، يشعر تجاههم بدين معلق في رقبته.

هنـــية مـــن الذين لطّمتهم الدنيا، شربت المر على حياة عينها، ظلت تخدم في البيوت لتصرف على أختيها العانسين، مـــات أبوهم، سيدنا الذي علمه، وترك لها البنات دون أخ أو معـــاش، وعندما ضحكت لها الدنيا وزهزهت خطبها فوزي الحمراوي، قالت تتزوجه، يستر عليها وعلى البنتين، ويعيش معاهـــا في دارهم، لكن الدنيا ضحكت عليها وغيمت، خطفته حـــرب الاستنزاف، كان الشيخ قد تمنى على فوزي أن يعقد قرانه عليها قبل أن يذهب للجبهة، كأنه كان يقرأ الغيب، وقلبه يشم رائحة الموت.

يســـرح بذاكرته وابتسامة خفيفة تتخايل على وجهه، يعد علـــى أصابعه الأشهر المتبقية له قبل خروجه على المعاش، ســـبعة أشهر، لا، ستة أشهر، قرر أن ينفذ ما نواه من زمن، يكتب كتابه على هنية أو صفية، زوجته نميرة مريضة، بينها

بين الآخرة فركة كعب، وعزرائيل ممكن يفتكرها في أي لحظة، وسناء ستتزوج قريبا، وهو على كف الرحمن، نعم، رصيد قرانه على إحداهما، أقل واحدة عندها خمسة وخمسين سنة، من سنه تقريبا، أصغر منه بخمس سنين يا دوب، والتي بقع عليها البخت تستطيع أن تقبض المعاش بعد موته هو ونميره.. الشر بره وبعيد.. والله فكرة معتبرة يا واد يا حامد.

كان عليه أن يخبر نميرة بما قرره، صحيح أنها بهيمة مثل كل الستات يمكن تحرن، وفي هذا الموضوع بالذات، لكن متى كانت لنميرة أو غيرها كلمة عنده، المصيبة لو عرف أخوه النادي، الموضوع لن يعدي على خير، وهو يخاف منه أكثر من عزرائيل.

قال : إلى أن يعرف النادي أو يحين الأجل، ساعتها يحلها الحلال، اتسعت ابتسامته، راقته الفكرة، وشعشعت في دماغه، وعلا صوت ضحكته.

قال يونس الحمراوي شقيق المرحوم:

ــ حمد الله على السلامة يا با الشيخ.

نطقهـــا فـــي دقيقة تقريبا، ودعاه ليأخذ الشاي في دقيقة أخـــرى، لـــم يرم له الشيخ أذنه، دماغه مقلوبة، نصفها في الراتب الذي اختفى، ونصفها يفكر في طعام الغداء.

يونـــس حاصل على دبلوم زخرفة، لكنه من يومه يعشق الكهـــرباء، ويحشـــر مناخيره دائما فيها، ذات يوم هم بوضع الإبريز في الفيشة، أمسكته صاحبته، ثم نطرته بعيدا، انكتب له عمر، أخذ يولول، ومن يومها وهو يتأتأ في الكلام.

يقـــول الأولاد الملاعيـــن فـــي القرية، أن بشرة يونس المضـــروبة باللونيـــن الأبيض والأحمر بسبب الكهرباء التي مسكته ونقشته، وأنه يضئ في الظلمة كالعفاريت، وعزرائيل ذات نفسه يخاف يهوِّب ناحيته.

وضـــع الشيخ قدمه على عتبة الدكان، لم يتجاوزها، أخذ عن بعد يتفحص ما بداخله، يونس منذ اعتزال الكهرباء يعمل فـــي تنفيذ براويز الصور، كل من يريد أن يأخذ صورة في البندر يقوده يونس، يسافر على حسابهم ويحصل على عمولة من المصور، يشتري خشب البراويز اللامع لكبار الفلاحين، يقـــوم بتقطيعها في دكانه، ويصنع لصغارهم براويز من أية

لعة خشب يصادفها، أخذته الحرفة، واتسعت معه الصنعة، يحضر الصور من البندر ويكمل بروازها في القرية.

ومرة بعد أخرى يهرب من الأولاد الذين يتحرشون به، ويتندرون على لونه، يتربس على نفسه الأبواب بسبع خوخات، يرسم الذين يكرههم بالفحم، يزيد في سوادهم ويمحي شوارب من كانت لهم شوارب، والذين يحبهم يرسمهم ثم يلصق على ملامحهم عيدان القمح اللامعة، بل يصنع لهم أحيانا عمامات بيضاء.

تمعن الشيخ في الصور، فتح حنكه عن آخره، كلهم بلباس واحد.. بالبدلة والكرافتة، فقع ضحكة عالية.. من أين لهؤلاء بالبدلة ؟!، الصورة الوحيدة بدونها كانت لأبيه المرحوم أبو عبده.

قال يونس: عندما يطلع إيراد الأرض وتجري الفلوس في أيدي الفلاحين، يذهبون إلى البندر، كل واحد يخلع جلبابه عند المصور، ويلبس الطقم الجديد بدون بنطلون بالطبع، وتلتقط له الصورة.

أعاد الشيخ النظر للصور مرة أخرى، كلهم بالبدلة نفسها، وكلهم ميتون.

طفرت من فمه شبح ابتسامة ساخرة .

.. واد يا يونس.. اسمك على اسم الأنبياء باله، ما تتجوز هنية أو صفية ينوبك ثواب، واهو زينكم في دقيقكم.

ــ ابعــد عنــي يــا با الشيخ، دا الواحده فيهم قد أمي، ماتتجوزها انت.

نطقهــا فــي دقيقتين تقريبا، استدار الشيخ في منتصف الجملة، آخذا طريقه إلى داره.

ــ عاوز أعمل لك صورة يا با الشيخ.

.. تاني .. بعيد عن شنبك، لسه قدامي عشر سنين.

في الدار، قفزت إلى حضنه حفيدته بنت الدمرداش.

ــ جبت اللي قلت لك عليه يا شيخ ؟.

يفطس على نفسه من الضحك، وتغرغر عيناه كلما نادته يا شيخ، أو يا شيخ حامد، تذكر أنها طلبت منه في الصباح أن يحضــر لها شعرا أسود بدل شعرها الأحمر القاني، حتى لا يتــندر عليها الأطفال، وينادونها : يا حمرا.. يا حمرا .. قال لها وهو يربت عليها : السوق مقفولة.

انسلت من حضنه باكية مسرعة، وهو يعدو وراءها.

يـــدور حـــول نفسه في الصالة الكبيرة التي يمرح فيها الخيل.. يخرج من غرفة ويدخل أخرى، بوجه متوتر، يفتش بعصـــبية عن أشياء لا يعرفها، يلعب الفار في عبه خشية أن يكون الدمرداش عبث بحاجاته كعادته، بسرعة تأكد أن دولابه كمـــا هو، سرقة المحفظة هيجت خوفه، والفار بداخله يتقافز بشدة، قالت نميرة :

ـــ فداك يا خويا، استعوض ربنا.

.. استعوض ربنا يا نميرة، مرتب الشهر كله، أنا حاسس أن السكته القلبية واقفه لي على الباب.

ـــ بعد الشر عليك.

.. الشر !!.

فكـــر أن يصـــعد بســـرعة إلى سطح الدار يعد الأرانب التركـــي التـــي أخـــذ أجداد أجدادها من إسماعيل، أو يدخل الخـــوازن يعد الإوز والبط.. هو يعرف الدمرداش أكثر من أمـــه وأبـــيه، عاجنه وخابزه أكثر من ألف مرة، صحيح أنه يحـــبه لأنه ابنه البكري، ولأنه خفيف الدم، لكنه يعرف أيضا أنه حرامي مقطوع اليد.

لمـــح حفيدته تخرج من غرفته، دموعها لم تنشف بعد، أخذ يعدو خلفها، هربت منه إلى غرفة السلالم.. توارى قليلا خلف الباب، يداعبها ويسلي نفسه، محاولا أن ينسى المحفظة، وعـــندما اندفـــع فجأة ليمسك بها، تعثرت قدمه بعقب الباب، وهوت رأسه على حلة نحاس كبيرة مخبأة أسفل السلم.

.. يـــا خـــبر أسود، دكر وز طايب وبايت، مش خايفين عليه من القطط يا ولاد الكلب.

القطط هي الشيء الوحيد الذي بقي لأمه من ذكرى أبيه، قـــط وقطة، تكاثرا حتى صارت القطط في كل مكان، أحيانا يزيد عددهم على الحد، لكن لا بأس، الأمر لا يخلو من فائدة، تـــأكل الفـــئران والثعابين التي تهبط من القش المخزَّن على

السطوح، ثم أن ابنه الصغير يبر نفسه أحيانا ببيع صغار القطط إلى الأولاد على كوبري المصرف.

قالت نميرة :

ــ دكر أمك يا حامد، جاي من عند النادي، سايقه عليك النبي أوعى تقرب له، تبقى فضيحة.

النادي الذي ترك الدار من زمان، بعد أن فتحها عليه الفتاح، وأعطاه ربنا من وسع، يعرف طبع أخيه منذ الصغر، لذا يحرص من آن لآخر أن يود أمه، يرسل لها حوائجها، كسوة الصيف والشتاء وصندوق معسل كل شهر، وفي شهر رمضان يأخذها عنده، تقضيه كاملا معه، وتعود صباحية يوم العيد لترى أولاد حامد وأحفادها الآخرين.

بعد وفاة المرحوم أبو عبده، أخذ الشيخ حامد مكانه، صار كبير الدار، عزلوا من عمهم الحاج حامد والذي سمي الشيخ على اسمه، انتزعوا ما استطاعوا من أرضهم، وتولى الشيخ مع اخوته شئونها وفلاحتها.

كان في السنة الثالثة قبل الليسانس، يرسب تقريبا كل عام، يفوت ثلاث سنوات وينجح واحدة، تساند مع أخوته

لزرع أرضهم وحدهم للمرة الأولى، يلعن عمه الحاج قرد كما يسميه، مرة علنا، وستين مرة في سره، لأنه ضحك عليهم في الميراث، ولهف أرض عماته، وترك لهم بالعافية ما يعادل ثلثي ميراثهم، ونهب الباقي بحجة مديونية الأرض كما ادعى، ولأن معلومات الشيخ في الفلاحة كانت على الحميد المجيد، لا زرع من قبل ولا قلع، لذا زرع الأرض كما تقول الحكومة وكتب الإرشاد الزراعي، الذي كان في أول أيامه، زرعها كلها قطنا على غير ما تعودت ، ورشها بالمبيدات في أول سابقة بالقرية، ولم يستعمل أنفارا لتنقية الأرض من دودة القطن، لذا جاءت النتيجة على غير ما اشتهى، عشرون فدانا، وقفتان فقط من القطن.

يصحو من النجمة، يسرح الغيط بجلبابه المقطوع، وبُلْغته البائسة، شغلته الوحيدة أن يدق على الصفيحة ليطيّر العصافير، لا يهدأ في مكان، يقطع الأرض حافي القدمين. مشغول على الفاضي، وان بدا من حركته وعلو صوته أنه أبو زيد زمانه، وعند عودته بعد المغرب، يجلس وأخوته النادي ومحيي الدين وإبراهيم حول طبلية العشاء، دكر وز أو

دكر بط يوم الخميس ــ البهائم لا تسرح يوم الجمعة ــ يكتفي الأخــوة الــثلاثة بأرغفة العيش، وبعض من الأرز، وصينية البطاطس أو البصارة أو الباميا الويكا التي يحبونها، تذكرهم دائمــا بأبيهم، ينال الشبع منهم قبل أن يفكر الشيخ في تقسيم الزَفّر عليهم.

في المرات الأولى كانوا ينتظرون، والدكر نائم في الحلة أســفل الطبلــية، والشيخ لا يأتيه الوحي إلا بعد أن ينهضوا، تعودوا بعد ذلك على الأمر، وعروسة تداري صوتها وتقول : هو عبد العاطي دايما يجيلك متأخر يا حامد، اخص عليك يا بــن بطنــي.. وعندما يتأهبون لغسل أيديهم يسمعون شهقته، وهــو يــرفع سلطانية الشوربة إلى فمه بكلتا يديه، وصوته يجيب آخر الحارة، لا بمزمز ولا يرشف، يغب بصوت عال، صــوابعه اصــفرت من شرب سجائر اللف، وحواف شاربه اصفرت من كثرة إدام الشوربة، وعندما يستقرون في حوش الدار أو على السطوح، يبدأ طقوس الخميس في فرتكة الدكر وتمزيقه، يهربده، ويأكله والقونصة والكبدة.

اكتشـف ذات يـوم أن رأس الدكر غير موجودة، وأن نمـيرة أعطتها لأمه من وراء ظهره، هاج وكاد يرمي عليها يمين الطلاق.

ـ الراس دي كوم اربعة يا نميرة.

الدكر دكر أبونا، والغرب يطردونا، قالت أمه وهي تنتش الحلـة مـنه، وأردفـت.. هم المشايخ كلهم كده، همهم على بطـنهم.. لم تكن المعضلة الكبرى أن الشيخ يأكل زَفر الدار وحـده ويحرم الآخرين، يبدو مغتاظا إذ رأى أحدا يأكل في الشارع.. الناس في القرية يأكلون وأبوابهم مفتوحة، والشيخ خـائف أن يأتي الآخرون على طعام البرية، ولا يخلو الأمر لديـه من الجد، إذ كان يترك ـ دون طيب خاطر بالطبع ـ الحوايـج لاخوتـه البـنات قبل زواجهم، ولنميرة وعروسة والأولاد.

لم يفلت الحلة إلا بعد ان أخذ النصف العلوي من الدكر، تناهى إلى سمعه صوت إسماعيل يبلضم مع آخر كأنه رفيقه الشـيخ زاهي، ضريران سقطا من كشوف النعمة، إسماعيل يسـحب زاهي دائما لأنه ابن القرية ويحفظ أزقتها عن ظهر

قلـــب، زاهي من قرية أبو غانم القريبة، كل يرشد الآخر في حتـــته، يتبادلان القيادة، ويسقطان على العزومات معا، يكفي أن ينـــتدب أحدهما ليحضر الآخر، لكن إسماعيل يتفوق على صـــاحبه، يقع واقفا، يدبر العزومات ويستطيع أن يشم رائحة أي دكر بط من على بعد كيلو.

أوعز الشيخ لحفيدته أن تقول لهما أنه غير موجود، ولم يعد حتى الآن من الغبابشة.

ـــ جدي بيقول لكم أنه لسه ما جاشي.

بصوت خفيض.. طول عمره طفس، احنا عايزين ستك عروسه.

ـــ ستي بتعيط علشان جدي اخد نص الدكر بتاعها.

حـــول الطبلية جلس الضريران جنب عروسه، إسماعيل قريـــبها الـــذي يصـــعب على الكافر، ابن عمة خال زوجها الأولانـــي، الـــذي مات وهي حبلى، وبعد أن وضعت بأشهر قليلة تزوجت أبو عبده والد الشيخ حامد، لم تخلع ثياب الفرح، ولا لبســـت هدوم الحزن، الناس ينادونها، العروسة راحت، العروسة جت .

بدأوا يأكلون غصبا عن نن عين الشيخ وهو يتمتم :

.. بالسم الهاري يا شيخ سماعين.

ــ بــتقول حاجــه يــا شيخ حامد، أمال فين الزَفر اللي لطشته من عروسه، باين عليه دخل الشونة .

.. احمد ربنا يا سماعين، أبوك مات من الحامض وأكل القوالح.

ــ يا سيدي.. هو كان لقى الحامض ومات .

كــان إسماعيل قد تحسس الطبلية قبل الأكل ولقط سمكة كبــيرة، وضــعها أمامــه، سرعان ما اختفت، ولم يجد إلا البساريا الصغيرة.

ــ أمال فين أمهم يا شيخ حامد.

بعد الشاي، قال زاهي :

ــ أنت عارف وفا زيت حار بن عمك عمل إيه النهارده يا شيخ ؟!

اعــتاد الشــيخ عند خروجه في بعثة يوم الجمعة لقرية مجــاورة، أن يــترك للشيخ علي عبد اللطيف زمام الأمور، يوكله في خطبة الجمعة، هو المفتح الوحيد بين العميان زاهي

، إســماعيل مؤذني الجامع، ومعهم مصطفى نشوان الفراش الــذي يؤذن أحيانا في غيابهم، يكره الشيخ سيرته لانه فراش مــلاوع لا ديــن له ولا ملة، ولانه كما يقولون عنه، له في الحشيش.

يعلــو مقــام الشيخ علي عبد اللطيف على الآخرين لأنه يحفــظ القرآن، وعنده كُتَّاب، ويقرأ في بعض الكتب القديمة، صــحيح أنــه أحيانا له حاجات نص كم، مثل عمل الاحجبة وادعــاء فتح المندل، لكنه على كل حال أفضل الموجودين، اثنان عميان وواحد بتاع أنفاس.. أوحى إليه الشيخ أن يخطب الجمعــة مطــرحه، لكن الظروف كانت أقوى منه، ستتزوج ابنــته في قرية مجاورة، حضر العريس وبعض أفراد عائلته صــباحا يــرجونه أن يخطب عندهم، ليتشرفوا به أمام أهل القرية.

.. وخلا الجو لوفا زيت حار.

ــ فرصــته جت له يا شيخ حامد لحد رجليه، طلع على المنبر من غير عمه، تصور، لابس طاقية زي بتاعة نهرو.

.. وأنت شفتها إزاي يا شيخ زاهي.

وفـا زيـت حـار بن عمه الحاج قرد، زميله في الدا
والمعهد الأزهري يوما بيوم، الزوادة واحدة، والطبلية واحد
فشـل وترك الدراسة، وعاد للقرية يجر خيبته، لا شهادة و
غـيره، قفـته فارغـة إلا من زجاجة زيت حار سرقها م
المطعم المجاور للمعهد الأزهري، الزيت الذي كان يأبى أ
يذوق الفول بدونه، وطالته رائحته واسمه، ظل يضمر الحق
للشيخ الذي ركب القطار وتركه يسقط من العربة الأخيرة، لذا
يشـيل منه في نفسه، يتندر على أقواله وفتاويه دائما، وحبال
الأسـى كانـت طويلة، وزادت وفاضت بموضوع الميراث،
وعند قسمة الأرض التي لهف الحاج قرد أكثر من ثلثها وحده
بمساعدة وفا.

ـ شـق الصفوف يا شيخ حامد، وطلع على المنبر من
غـير حـد مـا يدعيه، وكان معاه كتاب قديم أظنه الخطب
المنـبرية، وبعـد أن حمد الله وأثنى عليه، اتكلم عن فضائل
الصوم، مع إن إحنا مش في شهر رمضان.

إسماعيل أخذ طرف الحديث من زاهي وهو يكح ويقهقه:

ـ ولما وصل لنهاية الخطبة رفع أيده، وقال يا دعاء :

.. اللهم عافنا واعف عنا

.. اللهم ارزقنا واكرم مثوانا

.. اللهـــم انصر السلطان قطز وعساكره، وامحق بسيفه رقاب الطبقة الكافرة الباغية ، يا مالك الدين والدنيا ، يا رب العالمين ، وأقم الصلاة يا شيخ زاهي .

انقلبت صينية الشاي، بعد أن انقلب الجامع من الضحك .

ــ ألا الصلاه دي تجوز يا شيخ حامد، ولا نعيدوها ؟!.

فـــي الطـــريق الواسع المؤدي إلى الجامع، يسير شاردا يحفه زاهي من ناحية، وإسماعيل من الأخرى، طريق واسع عريض.. البركة في الشيخ نادي، لولا وقفته في وجه الناس لضاق الطريق وأغلقت الأزقة والحارات، كل واحد يبني دارا يقـــتطع لنفسه مترا من هنا، وآخر يقابله، ماذا جرى للخلق، الصدور ضاقت والبطون عكرَّت، كل واحد يحاول أن ينهب مـــال غـــيره، ومـــال الحكومة بالمرة، لكن الحكومة تستاهل ما يجري لها، تضحك على الفلاحين الغلابة وتستقوي عليهم، تشـــتري القطـــن والأرز بتراب الفلوس، في الأول تعطيهم سلفة، تجر رجلهم، ثم تدوخهم السبع دوخات حتى تنعم عليهم ببقـــية حقهم، والذي غطى وفاض أنها رفعت أسعار المبيدات والكـــيماوي وتفرضـــهم فرضا على بطاقات الفلاحين رغما

عـــنهم، تسرقهم بعين، وتتفرج عليهم بالعين الأخرى، والذي لا تسرقه يسرقه راغب وشركاؤه.

ثـــم أن هذا كوم، وموضوع شح المياه كوم آخر، الترعة ناشفة طول السنة، بالكاد تروي الأرض والناس نشف ريقها، وإيـــراد الفـــدان لا يســـمن ولا يغني والناس على وشك أن يقطعـــوا بعضهم.. قرية كلها مسلمين، حالها بالبلى، السرقة طالعه نازله منشار، والحكومة تغمض عين وتقلع بالأخرى، نعـــم، لـــولا أخـــوه الذي يقف بعقله ونبوته في وجه الجميع لصارت أزقة القرية ممرات خانقة.

يقـــول إن أخاه من النوع الذي يولد وعلى وجهه مهابة، يخشـــاه الجميع، ورغم ذلك يحبه معظم أهل القرية، هو الذي يـــنفق من حر ماله، يجري على السكك، يغيب غيبته ويعود أنصـــاف الليالـــي، لتنعم القرية بالماء والمدرسة، وهو الذي عمـــل لهم الجمعية الزراعية، ويكرهه آخرون، بعضهم من بـــاب الغـــيرة وبعضـــهم من بوابة الحقد، يده تطال الغاية والـــتايهة، هو الذي يستطيع أن يسعى عند الحكومة، يعرف المحـــافظ، وضـــباط الـــنقطة، ومفـــتش التموين في البندر،

وصـــراف مصـــلحة الأمـــلاك.. يكـــرهونه لأنهم يكرهون هدومهم، وأنت أيضا ينوبك من الحب جانب يا حامد.

هـــو نفسه يخشاه رغم أنه الكبير، ويقطع جازما أنه لولا خـــوف الـــناس من النادي لنحلوا وبره، وقطعوا فروته في الـــرايحة والجاية، لكن لا بأس، كل ذلك بسبب لسانك المبرد وفتاواك الجريئة التي تطلقها كل حين يا حامد.

انتـــبه على نفسه، لا أحد حوله، وزاهي وإسماعيل عقبا فـــي الطـــريق، وجـــد الفنجرية على عتبة دكانها، كما هي، مزروعة في مكانها منذ عشرين عاما، طرحتها الشبيكة على رأســـها حـــتى ظهـــرها، والكحل يلمع في عينها، عايقه من يومها، لا يدري متى جاءت إلى القرية، ولا لماذا، حطت في غفلـــة مـــن الزمن، كأن الأرض طرحتها، لا أحد يسأل عن أصـــلها وفصـــلها، كأنها سرقت لسان الناس ورمته في بير، تحـــيط نفســـها بأشباهها الهاربين من بلادهم، من النار ومن الموت.

ـــ عامل إيه يا شيخ حامد ؟.

.. غول، غول يا فنجرية، المهم أنت.

ـ زي الجن أهوه.

.. قومـــي روحي يا فنجرية لأحسن يشوفك وأنت حلوه كده.

ـ بعـد الشـر يـا شـيخ حـامد، أنت فاكر عزرائيل ما عندوش نظر وألا إيه، لسه بدري عليا يا خويا.

.. المشكلة يا فنجرية أن عنده نظر.

تضحك وتطمر نصف وجهها في طرحتها، بطرف عينه لمـح إسـماعيل يكلـم إحدى النساء، وهو يلوي عنقه يمينا ويسارا لأعلى.. إسماعيل لا يتأخر عن إبداء النصائح للنساء فـي مسائل الزواج والانجاب والذي منه، يبرطم دائما بألفاظ من عينة.. زيت الخردل.. فلفل أحمر مصحون.. صدر ديك رومـــي لـزوجك يـوم الخميس.. ورك معتبر لعمك الشيخ إسماعيل، يودع كل واحدة - وواحد أيضا - بوضع مؤخرة عصـاه على صدرها أو فخذها، أو ما تطال يده، وهن يفقعن ضحكات مرقوعة، سرعان ما يخبئنها في طرحهن، ويغادرنه باسمات.. جاتك إيه يا شيخ سماعين.

عصـــاه طويلة لا تتناسب مع قصر قامته، ينتهي طرفها بشـــفاطة ثـــدي جلد لينة، أعطاها له مصطفى نشوان فراش الجـــامع، صـــاحب المزاج العالي.. وزاهي يزغده في جنبه ليلحقا بالشيخ ويقول كل قصير مكير.. كل ذي عاهة جبار..

انتـــبها علـــى جاعورة الشيخ وهي تلالي، تناديهما، قال إســـماعيل.. ربـــنا نجاك النهارده ياشيخ حامد، الحمد لله أنك صليت بره البلد.

لـــم يعره الشيخ أذنه، يعرف أن إسماعيل يهول الأمور دائمـــا، لذا يسيب له فارغة، ويعذره لأن أخواله العمد أكلوا مـــيراث أمه بالتبات والنبات، ولم يتركوا له خردلة فالصو، وأفـــتى كبـــيرهم ـــ الله يجحمـــه ـــ بأن لا ميراث له، وقال متبجحا: الأعمى ما يخدش.

ولأن الغلـــبان لا يشـــبع غلبا، والدنيا لا تعطي محتاجا، طفشت زوجته التي كانت حائطه ومخدته، لذا يشيل همه على قلـــبه، يوزعه، على الشيخ حامد حينا ، وعلى عروسه حيناً، ويرمي الحمل الثقيل على زاهي، يتقاسمانه معا، يسوحان في الأزقـــة والقـــرى المجاورة، يصنعان معا جوقة في الطهور

وليالي المشايخ، يقرآن ما تيسر، ويهيلان التراب على سوا
البخت، وأحيانا يضحكان معا كأنهما ملكا الدنيا والآخرة.

لكن إسماعيل ليس من النوع الذي يفوت تاره، لذا يسوق
الأولياء والبخاري والترمذي على الشيخ حامد لينتهز فرص
عـند النادي المشغول دائما، يزن على دماغه شفاعة لله، هو
الوحـيد الذي يقدر على أخواله ويستطيع أن ينتزع له ميراث
من تحت باطهم.

ـ ربنا نجاك يا شيخ حامد وحاش عنك، أبو شبارة صلى
النهارده في الجامع، أول مرة في حياته يغلط ويعملها.

.. وأنا مالي.. يعني الركعة بقت بعشرة يا سماعين!!

ـ كـان بيسأل عليك، وعايز يمسك في خناقك، فاكر أن
الدمرداش ابنك سرق البط بتاعه، وما تستبعدش كمان انه كان
ممكـن يعارضـك وأنـت علـى المنـبر، ما تزعلش مني
يا با الشيخ.. قول له في وشه ولا تغشه.

ركـبه عرق الموت، جاءه اليوم الذي يخشاه، ويعمل له
ألـف حساب، يود أن يعيش حتى يشوف يوما في الحرامية
والحاقديـن عليه وعلى أخيه الشيخ نادي، لكن المصيبة لبدت

لـــه فـــي الـــذرة، وعلقته من عرقوبه. كيف يقول للناس لا تســـرقوا، والدمـــرداش كـــل يوم يحرق الأخضرين ويسوي الهوايـــل، لو كان فيه حيل لقعد عليه وبططه حتى آخر نفس فيه، يتمنى على الله أن يأخذه، أو يهديه، لقد رأى راغب بأم عيـــنه، وهو يحمل زكيبة البط، ورآه وهو في عز الفضيحة أمـــام جامع الغبايشة. كيف يدرأ عن ابنه دون أن يفشي سر راغب.

.....

هل هلال أبو شبارة، أول مرة يحضر صلاة الجمعة من سنين، رجل تخين فعلا، بمؤخرة منتفخة كأنما جمع مؤخرات العائلة في مؤخرته، لا ينفع معها كرسي ولا دكة خشبية ولا بحـــزنون، والأخيرة اشتكت حتى كلت، سقطت به، تهشمت وهشـــمته، كُســـرت ساقه ولم تنفع معها الجبيرة، أخذ يعرج علـــيها مـــن وقـــتها، اضطروا أمام عظم الأمر أن يبنوا له

مصـــطبة كبيرة بالطوب أمام دكانه، عريضة تليق بمؤخرته، مريحة تماما له، ولا تتسع للآخرين.

هـــو صـــاحب دكان التموين الوحيد في القرية.. يوزع الزيـــت والشـــاي والســـكر بالبطاقات ـــ والناس منهم لله ـــ يقولون أنه يأخذ تموين من ليس معه بطاقة، ويضرب طناشا على الذين لا يستوفون حقهم قبل انتهاء الشهر، ثم يبيعها من تحـــت الطبلية، في السوق السوداء بضعف الثمن، وفي يوم وليلة أصبح من أغنياء القرية.

لكن بما أنه يوصل من هنا ويقطع من هناك، فالحرامية مـــن جهة لا يتركونه في حاله، وأولاده ينغصون عليه لقمته مـــن جهة أخرى، خصوصا عبود ونجاح التي ضاع لها دكر رومي، ونادوا عليه في ميكروفون الجامع، سماها نجاح يوم حصـــل على رخصة التموين من الحكومة، وهي كانت وفية لاسمها، لم تترك له نجاحا إلا وشاركته فيه.

وقعت المصايب على رأسه، وما تجمعه النملة في شهر يـــأخذه الجمـــل فـــي خفه، قبل سرقة البط بشهرين، اكتشف اخـــتفاء نصف إيراد الشهر، تكدر لكنه نام على الموضوع،

وبحس الغني البخيل شاهد عبود يضع حشوة قش أسفل رجليه قبل أن يحصيا معا إيراد اليوم، يعد النقود، يعطي أباه بريزة فضة، ويسقط أخرى في ثنيات الحشوة، ونجاح الملعونة، مقصوفة الرقبة، بتدبير مسبق قطعت تيار الكهرباء عن الدكان، وأبو شبارة الذي لطمته الدنيا فهم الملعوب، أمسك كالكهرباء بيدي عبود.

.. الله، الله.. فيه إيه يا با ؟!

ـ فلوسي يا عبود يا بني.. فلوسي.

ومن يومها لا يسمح لعبود بالخروج من الدكان ولو لدخول الحمام دون أن يفتشه، حتى تكة لباسه، بعد أن طرده شهرا من الدار والدكان وأعاده أولاد الحرام، وبعد أن أقنع نفسه بأن يسرقه ابنه أفضل من أن يسرقه راغب والآخرون.

– الحمد لله، ربنا نجاك يا شيخ حامد.

.. جرى إيه يا سماعين، أنت حتمسك لي زلة والا إيه؟.

تدحرج أبو شبارة إلى الجامع مستندا على أبو دياب من ناحية، وأبو الفضل من ناحية أخرى، وعبود ابنه خلفهم، وصل قبل انتهاء الخطبة بقليل، وعندما وجد وفا زيت حار

معتليا المنبر.. هم متراجعا، لكن أبو الفضل استحلفه برحمة من ماتوا له، وأبو دياب طبطب على كتفه العريض، دفعاه بصعوبة للداخل، تساند على عمود الجامع ليأخذ نفسه، كاد يسقط من طوله عندما سمع زيت حار يدعو للسلطان قطز، هو أول من كشف الملعوب، ضحكته جلجلت في قلب الجامع، وراح يترجرج حتى أوشك أن يهر على المصلين، والجامع كله ضحك خلفه.

بدأوا في إقامة الصلاة، أوسعوا له مطرحا لأربعة، ثلاثة لجسمه، وواحدا يتحرك فيه، ويأخذ نفسه على أقل من مهله، عملوا حسابهم أنه سيصلي واقفا، اصطف خلفه رفيقاه، أبو الفضل وأبو دياب الهاربان من ثأر في الصعيد، لم يقدرا أن يخرجا للصلاة في قرية أخرى، خشية أن يغضب عليهما أبو شبارة، يبيتان معا في غرفة أعلى سطوح داره، أو في الخبيئة التي تقع تحت منبر الجامع، أو في أية داهية تشيلهما بعيدا عن العيون، لا يعرف أحد كيف يعيشان، يساعدان الفنجرية بعض الوقت في دكانها، وأبو دياب يسافر معها إلى الجناين مرة ويغيب عنها مرات، ترضى عنه حينا، وتغضب

عليه أحيانا، يقول النمامة ــ منهم لله ــ إن أبو دياب يعاشرها في السر، لكنه لا يستطيع أن يفتح فمه خشية ترحيله خارج القرية، أو يبلغ عنه أحد، وهو الذي يقول يا حيطة داريني، مثله مثل أبو الفضل، الذي يمر كل صباح على أبو شبارة، برمي الصباح، يشعل القوالح والخشب، وعلى نارها يسوي له براد شاي، ويعمر له الشيشة، يعاود الكرة مرة أخرى في العصاري مقابل كوب شاي أو تلقيمة ناشفة يدخرها لحين حضور أبو دياب، كما أنه يشرب ما تبقى في كوب أبو شبارة.

كَبَّر أبو شبارة بصوت جهوري يليق بتخنه وفلوسه، قرأ الفاتحة خلف الأمام، وعندما هم بالوقوف بعد الركوع، انحشر جلبابه بين فلقتي فخذيه العظيمتين، وبان مشدودا عليهما، تردد أبو الفضل، ثم مد يده من الصف الخلفي وشد الجلباب للخارج، لكزه أبو دياب الذي يقف بجواره، فهم اللكزة على أنه خاطئ، أعاد الجلباب لمكانه مرة أخرى، حشرجت الصفوف الخلفية ثم انفرطت ضاحكة، وأبو شبارة خرج من الصلاة متوعدا يهز طوله وتخنه، يبحث عن عصاه ويحاول

الجري خلف أبو دياب وأبو الفضل اللذين هرعا مع المصلين خارج الجامع.

.....

رفع مصطفى نشوان آذان المغرب، والشيخ حامد يلقي درس العصر، بالأمس شرح لهم ما ينقض الوضوء، كعادته يلقي الدرس ويعود في اليوم التالي يسأل المصلين.. يتبع طريقة السؤال والجواب والتلويح بيده، والعد على أصابعه، من لا يحفظ بذاكرته يحفظ بعينه.

التفوا حوله، بينهم أبو الفضل وأبو دياب في خزي بعد عملتهما السوداء.. لا يجلسان وحدهما أبدا، يتقصدان أن يكونا وسط الناس، لا يهشان ولا ينشان، يستدران عطف الناس، ولا يجيبان على أسئلة أحد، يحاولان أن يقطعا بينهما وبين ماضيهما.. واتفقا ـ دون اتفاق ـ على ألا يبوحا بأسرار بعضهما، تكفيهما الغربة والخوف واللقمة القليلة، وما يفعله الحرامية بهما، والذي زاد وفاض ما حدث منهما اليوم

بحســن نــية مــع أبو شبارة، يظلان في قلق دائم خشية أن يفاجئهما العفريت، وحين يستبد بهما الخوف لا ينامان، رغم أن أحدا بالقطع لا يعرف لهما طريق جرة، لأنهما على آخر حــدود الدنيا، بينهما وبين البحر فركة كعب، لكن الفزع من الغــدر وغــربة المــوت، جعلهما دائما على شفا يقظة مُرة موجعة.

.. واحد يقول لي إيه اللي بينقض الوضوء ؟.

انســحب أبــو دياب من لسانه، والضحكة على طرف منخاره.

ــ الواحد لو يعني...

.. الواحد لو ايه يا بني ؟!

ــ الواحــد لــو نسي يعني، ومد ايده في اللباس ومسك العدة.

انفلتــت الضحكات كالرهوان، ثم دخلت الأشداق بنفس سرعتها، وحط الوجوم.. تجهم وجه الشيخ.

.. العدة، العدة يا كلب، الواحد لو نسي ومسك العدة !!، اطلع بره، اطلع بره.

بعد الصلاة، اقترب إسماعيل من الشيخ ووجهه ينفخ من الغيظ.

ـ عارف أنت ربنا نجاك النهاردة ليه يا شيخ حامد ؟

.. تاني يا سماعين !!

ـ وفـا زيت حار شاف مصطفى نشوان الفراش وهو بـيدور في جيبه بره الجامع، وبيدي حاجة لواحد منهم، ولما طلـع المنـبر قال : إن الذين يشربون الحشيش في انصاص الليالـي حيروحوا جهنم، وأدي واحد منهم قاعد تحت العمود أهه، وشاور على مصطفى نشوان، ونشوان خد مداسه وطلع بره الجامع.

.. هو الجامع كله طلع بره النهارده ولا إيه ؟!.

جاء موسم الانتخابات باكرا على غير العادة، دون ميعاد أو ترتيب مسبق، قالت الحكومة انها تريد تغييراً من القاعدة إلى القمة، أي قاعدة تقصد؟ يرطن بصوت خافت كمن يسمع نفسه، أو كأنه يعيد الكلام ثانية ليحشره في جوفه.

لا بد أنها تقصدهم بالتحديد، يعيشون على طرف الدنيا، في قلب الهيش وشح المياه، والأرض شراقي، عطشانه طول السنة، حتى مياه الشرب تأتي يوما وتقطع عشرة، والأرض المالحة التي استصلحوها بجلد أيديهم، وعرق أكتافهم تعطيهم بطنا ثم تعلن عقوقها وعقرها، وتخرج لسانها لهم مرات.

لكن الحكومة، يا ولداه مؤدبة، تتحدث عنهم في مواسم الانتخابات والذي منه، كأنهم أبناؤها الذين سقطوا سهواً من جرابها وتريد أن تكفر عن ذنبها أمامهم، لكن أغلبيتهم

ناكـرون للجمـيل لا يريدون أن يتمرغوا في ترابها !!، لذا يجـب أن يطـالهم التغيير، نعم.. الحكومة على حق، لعلها تقصـد تغيير المكاوي كبير الحرامية وأعوانه راغب وغيره الذين حرقوا الأخضرين، وسرقوا بهائم الخلق وراحة بالهم، أو مصـطفى نشوان فراش الجامع الذي يبيع الأنفاس، آه لو تطاله يده مرة، يحلم بأن يواتيه الحظ ويكبس على نفسه، وهو يبـيع الحشيش كما يقولون، لكنه لا يريد أن يأخذه بالشبهات، تـم تعيينـه فـي هوجة الانتخابات الماضية، زرعه مرشح الحكومة في وسطهم غصبا عنهم، نكاية فيه وفي أخيه الشيخ نـادي وعائلـته، يلعب على كل الحبال ليضمن أصوات كل العائلات، ضحك عليه نشوان والحرامية، أخذوها لعبة، وحين سـقط المرشـح دون أن يسمي عليه أحد، اكتشف أن نشوان لا عائلة له ولا أصوات ولا يحزنون.

ورغم أن نشوان يبدو من مظهره أنه رجل فلاتي وعلى نـياته، ليس له في الحشيش ولا غيره، ويتحاشى دائما وجود الشـيخ ويتقـي شـره، يعرف أن يد الشيخ لو طالته ستقطع رقبته، الا أن إسماعيل يؤكد دائما أنه رجل قراري من النوع

الغويط الخنيس، أوعى من الحنش، وأن علاقة مريبة تربطه بوفا زيت حار ابن عم الشيخ، الذي ينط له في الرايحة والجاية، يسمع ودودتهما، يعتقدان أنه نائم، لكن الذي حير إسماعيل ولخبط كيانه أن وفا هاجم نشوان من على المنبر الجمعة الماضية، لا بد أنهم اختلفوا على المحصول يا شيخ حامد، لكن الناس تقول ان نشوان ليس أكثر من مرسال، يذهب للبندر لواحد يعرفه، يحضر منه المعلوم، قرش الغرام، يقوم بتقطيعه من سكات في داره وتوصيله من بعيد، لا أحد يعرف لمن، وحتى عندما وقع في شر أعماله، واختلف مع ربيع الذي يشتكي ذباب وجهه، وكبست عليه الحكومة، لم يجدوا عنده شيئا، وإسماعيل يقلب شفتيه بحرقة، يضرب على صدره ويقول إن زوجة نشوان خبأت المعلوم في صدرها.

نعم.. الحكومة تريد التغيير، وعندها ألف حق، يقرأ ذلك في صحيفة الأهرام التي تصله متأخرة يومين، والأهرام لا تكذب حتى لو تأخرت، صحيح أن إذاعة لندن تقول كلاما غير الذي يسمعه في إذاعتهم وغير ما يكتب في الأهرام، لكن الحكومة تؤكد أنها إذاعة مغرضة، خصوصا بعد العلقة

المتينة التي أخذوها في سيناء، ولولا أنه سمع بأذنيه، أن إذاعة لندن كاذبة ومغرضة من الشاعر بتاع قصة أبو زيد، وعبد الغني قمر الممثل الذي أتى للقرية ومعه صندوق سينما، وأخذوا ملاءة من عند الشيخ نادي، ووضعوها على حيطة الجمعية الزراعية، وأذاعوا فيلم "أم العروسة" وفيلم "الحفيد" في ليلة لم تشهد البرية قبلها ولا بعدها، لولا أنه سمع منهما الكلام بنفسه، لصدق الملعونة إذاعة لندن، وآه لو عرف أهل القرية أنها تقول على قمر أنه شيوعي.

نعم.. الحكومة تريد التغيير، خصوصا بعد أن مات بعض شباب القرية في الحرب، ولم يبق إلا الشيوخ يتحدثون عن فيلم الحفيد، لعلهم على الأرجح يريدون تغيير أبو شبارة بعد أن فاحت رائحته، وسحب رخصة التموين من عنده إلى دكان الشيخ علي عبد اللطيف المؤذن المبصر، وكيل الشيخ في خطبة الجمعة كأن الشيخ علي سيحضر التايهة والغايبة، والشيخ علي يترك الكتاب لزوجته التي تعرف مبادئ القراءة والكتابة وتحفظ بعض السور، يتركها ويقعد في الدكان، وتكون فرصته، تأتي إليه النسوة لفتح المندل وغيره، وزوجته

أبو عندو البغل
https://facebook.com/groups/abeab/

املـــي على الأولاد الألفاظ التي تعرفها.. زيت، سكر، شاي، ر غم أنه نهاها عن ذلك عدة مرات.

انتخابات وتغيير، كأن الشيخ علي عبد اللطيف هو الذي ســيعدل حالهـــا المايل، كان بين المصدق والمستريب، انتبه علـــى الخلق وهم يتنادون ويجرون تجاه الكوبري، لم يكترث لـــي الـــبداية، لكن ابنه الصغير الذي يبيع القطط للأولاد في الحـــارة اخبره أن عمه الشيخ نادي على الكوبري والبلد كلها هوله.

حملته الريح، وحين وصل اكتشف أن النادي شق جلبابه وعـــيونه حمـــراء، شـــرار، تـــبخ نارا، تخفي خلفها دموعا وحســـرة، وهو الصلب المتين الجامد، الذي لا تلين عريكته، الذي يشد حيل بلد بحالها ولا يهرب من الطوفان، لم يستطع أن يقربه، لكنه حوط عليه بعينيه من بعيد، تبين له من صياح اخيه أن عمهما الحاج قرد سحب عرض قطعة الأرض التي ,ر ع بها للقرية من قبل لإنشاء مصنع لسكر البنجر عليها.

الـــنادي الـــذي يفهمها وهي طايرة، لوح من قبل بما قد ,فعله الحاج قرد، يعرف عمه تمام المعرفة.. وأن تبرعه ليس

لوجـــه الله ولا إحساســـا بمصلحة القرية، ولا كرما منه، هو رجـــل أبخل من كلبة والدة، يموت على القرش لكنه غويط، دغل، يعي أن نجم النادي ابن أخيه في سطوع، وبدأ يسيطر علـــى القـــرية، و يميِّل رأيها، تسنده في ذلك علاقاته بالناس الواصـــلين، وصيته لعلع بعد أن أتى بالمدرسة والجمعية في خبطة واحدة، والخبطة الكبيرة رنت في الأذن بزراعة البنجر لأول مرة في تاريخ البرية.

كانت البرية تعيش بجانب زراعة الحرامية على زراعة الأرز والقمح.. والمدة الطويلة بينهما تظل الأرض فيها بور، والأرز حـــباله طويلـــة، والمياه شحيحة، والبنجر يوفر على الفلاحين الوقت والمصاريف، والدنيا نار، والمصنع سيشترى مـــنهم كـــل المحصـــول، يريد أن يضمن لهم حدا أدنى من المعيشـــة، وأولادهـــم سوف يجدون فرصة عمل بدل التنطع على كوبري البلد ليل نهار، وبدل التلصص على اللقمة، يوما يسرقون، ويوما يحبسون ويوما ينامون على لحم بطونهم.

ظـــل النادي يشرح لهم الفوائد التي ستعود عليهم نتيجة إقامة المصنع، يدعوهم بصبر ومرارة أن يفهموا مرة واحدة

أن يعـرفوا مصالحهم، وأن يبصوا أبعد من أقدامهم الحافية، لكـنهم تسمروا كأنهم أكلوا رطل رجله، وهو شعر أن هناك من عكر الترعة وحاول أن يرخي حزامهم، أحد يدرك تماما أن مصـلحة القـرية ضـد مصلحته، ومن الخير أن يعيش الأخـرون رباطـا لمداسه، بدل أن يقبوا على وجه الأرض، ويطلع صوتهم.

كانـت المشكلة في ضرورة وجود المصنع في كردون القرية حتى تستطيع سيارات النقل أن تسلك طريقا معبدا، كان هـذا شـرط الحكومة، للموافقة على الترخيص بإقامته، وفي لحظـة اسـتثنائية، لفتها العاطفة، تقدمت الفنجرية مثل الأسد بعقـد الأرض التـي تملكها، وهي لا تعرف إن كانت داخل الكـردون أو خارجه، خلفها تدافع البعض أمام النادي بعقود أراضـيهم، وليأخذ ما يشاء، ألقى الشيخ قنبلته، أعلن موافقته على إقامة المصنع على الأرض التي يملكها بجوار الجامع، مسـحيح أنـه ادخـرها ليوم عوزة، لكن يبدو أن اليوم جاء مبكرا، لا بد أن ينصر أخاه أمام الدنيا كلها، وأمام عمه الحاج ارد بالذات وابنه المشئوم وفا زيت حار، رغم انه كان يتمنى

فـــي قرارة نفسه أن يقام المصنع على أيه قطعة غير قطعته، وأن تقـــع القرعة على أرض واحد من المتبرعين الآخرين، يكفـــي أن الجامع الذي بناه أبوه طلع من نصيبه في الأرض وأبـــوه قال إن حامد هو الأزهري، والعائلة صرفت عليه دم قلـــبها ولـــو كان ينجح من أول سنة لوفر الكثير، وهو أولى بالجـــامع والجـــامع أولى به، وحامد من داخله ناقم، ويقول: عـــنهم ســـتين ســـنة لا صلوا ولا شافوه، لو طالوا يسرقوه لسرقوه، لكن ما باليد حيلة، نفذ السهم أولها وآخرها، مكتوب يا حامد، الجامع مرة والمصنع مرة.

عـــندما وصـــل إلى داره، أخبرته نميرة أن النادي طلق حفصـــة بنت الحاج قرد أمس، كان قد عقد عليها ولم يدخل بها، زغرد مثل النسوان، ثم خبأ الزغرودة في عبه بسرعة.

يـدور حـول نفسـه في الصالة، يداه مشتبكتان خلف ظهـره.. تعمـل إيه يا واد يا حامد، تعمل إيه؟، كانت أوامر الشـيخ نـادي قاطعة، أن يتقدم حامد للانتخابات، أخبره أن المسألة دخلت في الجد، وأن عمهما وزبانيته لن يناموا الليل، ولن يتوانوا عن إرسال الشكاوى، والحكومة لا مانع لديها من عربلة أي واحد في هذه المرحلة، وإقصائه حتى ولو كان من زبائنها، حتى تبدو بمظهر الباطش لا صورة الموالس، وحتى يكـون التغيير ناصعا ونظيفا مثل قفطان أبو شبارة، وحامد يعلـم تمامـا أن الدائـرة تعـرفه عن بكرة أبيها بين مؤيد ومعـارض، وإن كانت سمعته كمرشح ليست على ما يرام، والمعارضون البهائم ما أكثرهم، الذين يدعون عليه أنه يشكل الديـن علـى كيفه، خصوصا الأولاد المتخرجين حديثا في

الأزهـــر، فهم وأهاليهم في الحقيقة حاقدون علي أخيه أولا، وعليه من بعد.

ســـيخرج الزبانية والصيِّع من الجحور، ربيع، وفتح الله كـــرمله والقاعود وغيرهم، الذين يرتزقون من الشكاوى في مواسم الانتخابات مستغلين الخلافات القديمة بين عائلة الشيخ وعائلة المناصرة.

قـــرر أن يحـــاول ــ مجرد محاولة ــ أن يقنع النادي ليـــتركه في حاله ولا ضرورة لأن يرشح نفسه، مازال يدور في الصالة كالثور المغمي، يكلم نفسه، ونميرة تراقبه دون أن ترمش، نعم، سيصمم على الابتعاد ولو ولعت البرية في دماغ أصحابها، يتذكر تجربته المريرة في الاتحاد أيام كانت الدنيا دنـــيا، نجح، وصار أمينا للجنة الدعوة والفكر باعتباره عالم ديـــن، وفقيهاً كبيرا، أخذ المسألة بجد، قام بتكوين مجموعات عمـــل تتقصـــى أوضـــاع الفلاحين الفكرية وتساعدهم على تحسينها، اكتشف بعد المجهود الجبار الذي أدعى انه قام به أن علـــيه أن يوقع محضر الجلسة التي ضمته وباقي العلماء والمشـــايخ من أمين الاتحاد الاشتراكي، ولأنه عضو ملتز

منافح عن الاشتراكية – التي لا يطبقها – قبل الموضوع على مضض..

اكتشـــف أن أمين الاتحاد الاشتراكي يفك الخط بالعافية، ويحتفظ بالختم في داره.

فـــي المؤتمـــر العـــام الـــذي حضره كل أمناء الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة، صعد إلى المنبر، كان عضو البرلمان قـــد دعاه ليشرح أفكاره، ولينقد نفسه ويتحدث بصراحة عن أخطاء التجربة، بص في وجوههم، كلهم بسحنة واحدة.

قال بصوت عال: أقسم بالله العظيم أن كل أمناء الاتحاد الاشتراكي على مستوى المحافظة حمير.

كان فصله من لجنة الدعوة والفكر وإسقاط عضويته من بعـــد أقل عقاب لتهدئة الأمناء .. يضحك، كيف واتته الجرأة لكـــنه يعـــترف لنفســـه بالكثير من الحماقة التي لا تخلو من الحقيقة.

قطـــع عليه الدمرداش ضحكته، أبلغه أنه خطف شكوى مـــن يد ربيع وهو يقرأها على زيت حار.. أخذ يجري على الورقة بسرعة.... "وأخوه الشيخ حامد شيخ الجامع يقف على

المنـــبر، يـــتوعد الناس بما سوف يلاقونه إن لم يوافقوا على إقامـــة المصـــنع في أرضه، وقال في آخر الخطبة، إن ربنا سوف يضربكم بالبلغة ويرميكم في جهنم.."

رمى بالورقة واستلقى على قفاه من الضحك.

ابتلع الشيخ قهقهته، وبكم قفطانه الواسع مسح الماء الذي هبط من أنفه وعينيه، اكتشف أنها ليست واحدة، بل عدة شكاوى إلى رئيس مجلس المدينة ومأمور المركز، وأمين الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة.. الأمرّ من ذلك الشكوى المرسلة إلى شيخ الأزهر... "وحامد لم يلبس العمة ولا طلع على المنبر من سنين كما تقول السنّة" .. شده الضحك حتى انفرطت دموعه، لكن الذي غاظه ونكد عليه أن هناك واحدة ضد النادي باسم الحاكم العسكري للمحافظة.

مكتوبة كلها بخط ربيع، يعرفه، أبو قلب أسود، زعيم الحاقدين، فار جسمه من الغيظ، تنام الشياطين ولا يغمض جفن ربيع، الحقد يجري في دمه، كأنه مزروع في بذرته، يكره النادي كره أبي جهل لسيدنا محمد، لكنه ليس وحده،

يلوف بجماعته راغب والقاعود والمكاوي الكبير وزيت حار، شـلة الحسـد، شريبة الشاي، لكنه يبز الجميع في اصفرار وجهه وسواد قلبه، يحقد على النادي من أيام الكتاب، والنادي مـن يومـه عفريـت وابن حرام، هو الوحيد من هذا الجيل ـ جـيل الـندامة علـى رأي عروسـة ـ الذي وصل إلى الـبكالوريا، صـحيح أنه لم يحصل عليها، وطلع سنتها من التعلـيم لما مات أبوه المرحوم أبو عبده، وصحيح أيضا أن حـامد هو الكبير، ومسيرته في التعليم لا تشرف أحدا، لكن عروسـة هي التي أفتت بخروج النادي، ومشت فتواها على الجمـيع، والنادي موت نفسه في الأرض، وحوط عليها من الطامحيـن والطامعيـن، صـرف على حامد دم قلبه، حتى اشـتكت منه عالمية الأزهر، وأخذها بطلوع الروح، والنادي زوج أخوتـه البـنات، وعمـل كـيانا لنفسه ولأخوته وسط الـبرابرة.. آه لـو كمل تعليمه..، كان من الممكن أن يكون مفتش تموين أو حتى مفتش زراعة.

يخـبط جبهته ببطن يده، يتذكر بأسى إنه لم يفهم النادي علـى حقيقـته، وأن العلاقات بينهما كانت دائما على حرف

الخصام، والظنون السيئة جرت بالشيخ كثيرا والشيطان سرح به معتقدا أن أخاه يضيع الإيراد في أشياء تافهة، على الاتحاد الاشتراكي وعلى العزومات الكبيرة لضباط النقطة والمأمور وغيرهم، والشيخ كرشه فدان، ينقح عليه مثل دمل، لكن الذي لا يعـرفه أحـد، وحامد يبكت نفسه عليه كل ليلة، أن نفسه الأمـارة بالسوء حدثته بأن النادي الذي لم يكمل تعليمه صار معـروفا فـي المركز كله، وهو بقفطانه وعمامته معروف بالتـيلة في نواحي العزب والبراري أو البهائم كما يسميهم، وظلت العلاقة بينهما شبه مقطوعة، باردة دون جفوة، إلى أن رجـع إليه عقله، وعرف أن كل عين قدامها حصواية، وأن الـنادي كـان صاحب بصيرة، وما أنفقه بالشمال رجع لهم باليمين.

بعـد أن مـات أبو عبده، كادت الكلاب تأكلهم، وأولهم الحاج قرد الذي ضحك على حامد ساعة القسمة، لكن النادي لحق حقهم في الميراث قبل أن يكوش عليه عمه، ويحدفه في كرشـه، بـل كان أول من غامر، وزرع البنجر في أرض الـبراري، والعشـرون فدانا التي كان ذيل القط يعشش في

نصـــفها طول السنة، وتطرح قفتين قطنا بالأمارة، جابت لهم الشـــهد وصار لها شنة ورنة، إذ استطاع النادي بمعارفه أن يســـوق البـــنجر مما وفر لهم مالية كبيرة، وبنى النادي دارا لنفسه ولأخيهم من الأب، بل تكفل بزواج الدمرداش ولم يترك خيطا في ابرة الا لضمه، هنا زالت الجفوة، وترمدت الغيرة، خصوصـــا بعـــد أن شارك الشيخ في العزومات التي يقيمها الـــنادي، وتصـــدر الموائد وشبع حتى أصبح له كرش يليق بمقامه.

هـــو ربيع الحاقد على النادي وعلى نجاحه، حقده مولود معه، يريد أن يظل النادي جربوعا مثلهم، رأسه برأسهم، وأن يشـــده إلى زريبتهم، يقضي الليالي معهم في لعب الكوتشينة، ونهـــارا يرمون بلاويهم على علان أو فلان من ناس القرية الغلابـــة، يأكلون عنده ويهرون بدنه، وربيع الذي اشتكى منه أولاد إبلـــيس لا يتورع أن يعزم نفسه وزبانيته عند أي واحد يخطر على باله، وجهه مكشوف، يقول لأي واحد في وجهه أنـــه سيتعشـــى عنده، والمسكين يذبح الفرخة التي لا يمتلك سواها أو البطة التي تنام على بيضها.

حـــاقد لكنه مرعوب من مواجهة النادي رعب الملكين، يعرف أن لدغته والقبر، لذا حسب نفسه من الأول على قائمة الحاج قرد، وابنه زيت حار، صيع يموتون في بعضهم موتا، وكلمـــا ازداد خوفه زاد حقده، وامتلأت بطنه طينا، يكتب فيه شـــكوى كـــل لـــيلة، دون أن يوقعها باسمه، والنادي تصله الشكاوى عند رجله، من المأمور وبقية معارفه، والشيخ حامد حيـــن يذهب للبندر لتسلم مرتبات الجامع يعيد إرسالها لربيع مـــرة أخرى، يكتب عليها من أسفل.... هذه الشكوى وصلتنا مـــن مجهـــول نكرة يقلد خطك، والشيخ لا يفوته بالطبع أن يحصل من النادي على ثمن الطوابع على داير مليم، لكن أن يصـــل الأمـــر بابن الهرمة ليرسل شكاوى للحاكم العسكري للمديـــنة، يستعديه على النادي ليطبق عليه قانون من أين لك هـــذا، فهـــذا ما لا يطاق، بل ويطلب اعتقاله لأن الانتخابات علـــى الأبـــواب، ومـــن القاعدة إلى القمة بالأماره، رغم أن الشكاوى كلها تسلم إليهم ولا يحقق فيها باعتبارها كيدية.

نسي ربيع ما فعله أبوهم أبو عبده لأجله، ولأجل عائلته.. عائلـــة القـــش التـــي تكرههم وتكره الماء الذي تشرب منه

بهـائمهم، هل نسي أن الأرض التي يطفح منها هو وعائلته كانت مؤجرة من مصلحة الأملاك، التي تستولي على نصف إيـرادها، أرض مستصلحة من وقت قريب، ونتاجها حصرم إلى أن حولها أبو عبده من إيجار إلى ملك لحائزيها، بأقساط سـنوية قلـيلة، فتبدلت أحوالهم بعد أن كانوا جرابيع، يجري القمل على رقابهم ويسرحون في الموالد ومعهم ربابة.

نسـي، والحقدة والجرابيع ينسون، أن أبو عبده هو الذي دفع من حر ماله، واصطحب معه إلى مصر سبعة من كبار الـبراري، ثلاثة منهم حرامية وتابوا، أجرة السفر من جيبه، والأكـل والشرب على حسابه، صحيح أنهم ناموا في سيدنا الحسـين ليـتقوا أجـرة اللوكـانده، وكانت معهم زوادة من مجامـيعه، لكـن المرحوم هو الذي تكفل بالحكاية كلها من الـباب للـباب، يخرجون بعد صلاة الفجر، ينتظرون مرور الملـك ليعرضوا حاجتهم بعد أن بطل حيلهم وحيلتهم، وخاب مسـعاهم مـع رئـيس الوزراء مكرم عبيد باشا الذي شافوه بالعافـية وهـو نازل على سلم الوزارة، بعد ان احتكت بهم عسـاكره وبهدلوهم، والشيخ يهتف وهم ورءاه، عاش مكرم

عبيد باشا.. عاش مكرم عبيد باشا، ولما لم يستجب لمطالبهم، وقف أبو عبده أياما بطولها حزينا في سكة الملك أمام قصر عابدين، حتى هلت طلعته، والشيخ يلوح ويهتف، عاش الملك.. عاش مولانا الملك، وهم وراءه كالغنم، إلى أن صدمت سيارة الملك الشيخ المندفع أمامها، والذي رمى حاله وماله، حتى لا تضيع عليه فرصة عمره.. وقع تحت العجلات، ولستر ربنا انكسرت ذراعه فقط، ولولا أنه وقع لما توقف الملك، وأمر بإرساله على الفور إلى المستشفى، لكن الشيخ استحلفه بعزته وأطيانه، ورأس الخديوي الكبير في تربته أن يملكهم أرضهم، استجاب الملك لطلبه وأصدر أوامره لمكرم عبيد باشا الذي نفذ الأمر غصبا عنه، وأبو عبده دخل المستشفى الكبيرة على حساب الملك الخصوصي، جمع أصحابه وحلفهم على المصحف ألا يجيبوا سيرة ذراعه المكسورة.. لولا ذلك لكان ربيع يرعى مع البهائم في الهيش، وما كان له وعائلته غير الفتات وبسيس البط، وإن طالوه.

ربيع يعرف ذلك وأكثر، لكنه الحقد الذي عشش في صدره، وولع في كبده.

لا يترك نملة في حالها، لا يختشي على دمه ولا يتورع أن يستوقف أبو دياب، وأبو الفضل وغيرهما من الغلابة، الهاربين من المجهول إلى البراري، يقلب جيوبهم، ويقلق راحتهم، يأخذ قروشهم القليلة، فإن لم يجد لطش منهم باكو المعسل أو تلقيمة الشاي التي اشتروها لمسائهم، أو طلعت لهم من ذمة أبو شباره.

نطع، دفعه حمقه ذات مرة، دخل دكان الفنجرية، وبلا إحم أو دستور، عبأ سيالته بالطماطم، والأخرى بالبرتقال، لا ميزان ولا غيره، ودون أن يدفع شيئا شق طريقه إلى الخارج، اعترضته الفنجرية، دفعها بكل ما في قلبه من كبر، وما في نفسه من غل.. احمدي ربنا إن أنا سايبك تعيشي هنا من زمان، لا حساب ولا عقاب.

الشر المستخبي نط في وجهها، والشرر، عفقته من محاشمه، وهو يصرخ كثور وقع في بير ساقية، البرتقال يجري في ناحية والطماطم تتسرسب في ناحية أخرى.

كانـــت خطة النادي واضحة وضوح الشمس، وإن بدت غريـــبة لأول وهلـــة، بـــل ومفاجـــئة، لم يستطع أشقاؤه أن يهضـــموها علـــى وجه السرعة، لكنهم لا يملكون شيئا أمام شخصـــية النادي القاطعة، واعترافهم بفراسته، وقدرته على القـــيادة، قـــيادة الـــنعاج على رأي الشيخ حامد، وإن لم تخل المسألة من تنغيص بعض الحاقدين، الذين لا ينامون الليل، أو المماحكـــات الرخيصـــة ورمي الجثت من عائلة المناصرة، آخـــرها حيـــن اعترض واحد منهم طريق عضو البرلمان، وشـــتمه علـــى رأس الكوبري ليزعزعوا صورة النادي في عينه، وليؤكدوا له أن البرية ليست ملكا للنادي وحده، لذا جاء كـــلام الـــنادي حـــادا قاطعا بأن الانتخابات القادمة هي التي ســـتحدد حجمهـــم الحقيقـــي في البرية، بل ستكون القاطعة

الفاصلة، مربط الفرس، إما أن يعيشوا ويفرضوا أنفسهم على المنطقة بحالها، وإما أن يستولي الحرامية والصيع على زمام الأمـور، يحـزموا المـنطقة على كيفهم، وتطلع المياه في نواحيهم، وتمشي في مجاريهم.

كان يقدر ما لم يخطر على بال أحد منهم، حسب حسابه بـأن المنافسـة بين عائلتهم وعائلة المناصرة قد تدفع بأحد المطاريد، أو الحرامية إلى الواجهة، عيني عينك، رغم أنف التخيـن، العائلـتان الكبـيرتان تتنازعان، وبناء عليه تذهب الأصوات إلى أي حرامي لا يساوي ثمن هدومه.

فطـن الـنادي لذلك مبكرا، ما الذي يضير ربيع زعيم الحاقديـن لو سقط هو ذات نفسه، ونجح أحد الحرامية، المهم عنده أن يسقط النادي.

هـو أول من يعي أن البراري هي بلاد المطاريد، وهم علـى طـول الخـط ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، لكنهم في الـنهاية وتـد مدقـوق في الأرض، لا يمكن إغفال عددهم وخوفهـم، ويمكـن لهم أن يرجحوا كفة على أخرى، وإن لم يكن لهم في الثور سيكون لهم في الطحين.

العـــائلات لهـــا نصـــف الأصوات، وللمطاريد النصف الباقـــي، والـــنادي هـــو الوحيد الذي يعرف أنهم من أولهم لآخـــرهم لا يملكـــون بطاقـــة انتخابية توحد الله، وهو مراد الحكومة لتسوي الموضوع على الجنب الذي يريحها، ويهمها الطحيـــن فـــي الآخر، لذا تلعب مرة على البطاقة الشخصية، ومرة على البطاقة الانتخابية، وعند الجد ستلعب مع الجميع، وعلى الجميع.

هـــو المقـــرب منها والقاعد على حجرها، وهو ابنها في نظـــر الحاقدين وأولاد الحرام، لكن من قال إن أولاد الحرام ليســـوا أولاد الحكومة ومن صلبها؟!، بل هم أول من يتمسح بهـــا، ويمـــرغ مناخيره في ترابها ليحموا ظهرهم، ويداروا فضـــائحهم، وموســـم الانـــتخابات فرصتهم ليلعبوا على كل الحبال.

.. دول شـــوية صيع ولمامة يا شيخ نادي، لا لهم اصل ولا دين.

ـ حـرام عليك يا شيخ حامد، أوعى الحكومة تسمعك.. هـم صـحيح حرامـية، لكن الحكومة ألعن منهم بطوفين، وحرامي على حرامي نبقى خالصين.

.. حرامـية، حرامية وقلنا آمين، والمطاريد كمان بقالهم حس وحكم يا شيخ نادي !!.

ـ حتـبقى أنـت والحكومة والزمن وأبو شبارة عليهم، كفاية عليهم الخوف يا راجل.

.. الخايف يمشي عدل يا خويا.

ـ الناس خايفه من بكره بس يا شيخ حامد، وهم خايفين على طول الخط، خايفين الأرض تمشي من تحتهم، والحكومة والحرامية مش سايبين لهم حاجة يسرقوها.

ـ والله جيـت فـي الزمن الغلط يا بن عروسة، ولاد الكلب في كل شبر وكل شق.

الـنادي أول مـن يعلم أنه لولا مداهنة أولاد الكلب في مديـرية الزراعة، ما استطاع أن يخرج أرضهم من الدورة الزراعـية، واسـتخرج لهـا ترخيص زراعة البنجر، ولولا ألسـنتهم المـدلاة لما استطاع أن يقوم بتصريف المحصول،

وتكويـــن مركز ومالية محترمة يدافع بها عن مصالح عائلته ومصـــالح القرية، لكن ما يعدل الميزان أنه أبو الغلابة بحق وحقـــيق، يصـــرف شـــئون الـــناس فـــي الجمعية الزراعية والمديـــرية، يأتي لهم بسلف القطن، ويبيع لهم الأرز، ورغم أنـــه استفاد من ذلك وعمل علاقات مع الكبار في المركز إلا أنـــه يعـــي تمامـــا أن أرضه وظهره وسط الغلابة، لذا كان عطوفـــا علـــى الفقراء واليتامى، وهم أكثر من نصف البلد تقريبا، يدفع فلوس كفن الموتى، ويساعد أولادهم على دخول المدارس، والمدرسون يموتون في جلدهم لو اشتكى تلميذ أنه لـــم يحصـــل على وجبته اليومية، رغيف العيش الإفرنجي، وقطعة جبن الغنم.

كانـــت خطة النادي أن يعلن في البراري أن الشيخ حامد ســـوف يـــؤدي فريضـــة الحـــج هذا العام، وعليه أن يذهب مشـــوارين أو ثلاثة للبندر، يشتري ملابس الإحرام في مرة، ويجهـــز الأوراق ليقطع البازابورت مرة أخرى، وأن يطلب علنا من واحد أن يعيره الحزام الجلد الذي يربط على الوسط،

وتوضـــع به الفلوس حتى لا تضيع أو تسرق، ويستحسن أن يكـــون هـــذا الواحد أبوشبارة، الذي لا تبتل فوله في حنكه، ويتـــباهى علنا بأمجاده، حتى يوقن الجميع أن المسألة جد في جد، ويقتنع أهل البرية أنه لن يدخل الانتخابات فعلا، فتتحول أنظـــار الجميع وشكاواهم إلى النادي، وفي اللحظة المناسبة، قـــبل قفل باب الترشيح بساعات يقدم أوراقه، وبعد أن تنتهي التـــنازلات والطعـــون، يـــبرز اسمه على قائمة المرشحين، وتكـــون ضـــربة معلم ومفاجأة للجميع، ولكي ينْحبِك الدور، علـــيه أن يشرع في بيع فدان آخر غير الذي تبرع به لإنشاء المصنع.

.. يا خبر أسود ومنيل بطين، والعيال حتاكل منين بعد ما اموت يا شيخ نادي.

ـــ موت أنت وما لكش دعوه.

وأكمـــل النادي: على أن يتم الاتفاق مع أبو شبارة أيضا علـــى شرائه، ويذهب الشيخ بنفسه ليعرض الأمر عليه حتى يشـــيع الموضـــوع بيـــن الناس، ويتأكدوا أن الفولة صحيحة والملعوب بحق وحقيق.

نطر الشيخ عمامته، وكاد يرميها على الأرض.

.. هو أنا الحيطة المايلة، والا إيه يا شيخ نادي، وبعدين ما لقيتش واحد تاني غير سي زفت ده يشتري أرضي، لازم حيخسف بتمنها الأرض.

ـ يـا أخـي، أنت شايفه قام أشترى قوي !!، وحتى لو اشترى، خد لك فدان من عندي.

.. وأنـا إيه يضمن لي، وبعدين فلوسه كلها حرام، علي النعمة من نعمة ربي حيدخل النار حدف.

ـ حـرام عليك يا شيخ، يمكن يروح الجنة، ضيع عمره على السكك، وبعدين المطاريد عايشين في دواره ببلاش.

ـ ببلاش !!، حرمت عليه عيشته، بيخدموه خدمة العبد للسيد، راجل ذمته خربانه، دا إذا كان عنده ذمة من أصله.

ـ وأنت معاه، أنت قتلت الأخوان المسلمين، وعلى الأقل هو حج ثلاث مرات ومسح ذنوبه.

الـنادي أخـذه عرق الضحك، والشيخ كاد يستلقي على قفاه، بضحكته العالية الخشنة.

يحكـــي ســـاعة صفا، أن الحكومة جمعتهم، وهو طالب بالأزهر، وأرسلتهم في بعثة الحج، كانت المهمة التي أوكلت إلـــيهم ببســـاطة أن يقتلوا الأخوان المسلمين الذين فروا إلى الســـعودية ودول الخليج بعد حادث المنشية، وهو يؤكد أنه لم يقـــتل أحـــدا رغم أنه كان في عز فتونته، ويقول أنهم قتلوا ما يزيد على العشرين، ومرة يقول عشرة.

والـــنادي يؤكد أنه لا يستطيع أن يقتل فرخة، ربما كان عنيفا في صباه، لكنه عنف من الخارج فحسب، عنف القبلية التي تستلزم وجها خشنا لأتفه الأمور، ثم أن ظرفه وطريقته الكومـــيدية في الحياة، والتعامل مع الناس، وتلطفه في شرح مســـائل الدين، كسر عنفه مع الأيام، يبيت وهمه على بطنه، غلب حماره من العيال، ينام دون أن يشيل غما.

.. وأنا مالي ومال الشورة المهببة دي، قالها كانه يناجي نفسه.

الشـــيخ يعـــرف حـــق المعرفة، أنه لا يملك أصواتا ولا يحـــزنون، والوحـــيد الذي يضمن صوته هو الشيخ إسماعيل ــ إن كانـــت عـــنده بطاقـــة ــ والذين سيصوتون له هم في

الحقيقة أنصار الشيخ نادي، ولعله ــ مع محبته لأخيه ــ كان يستحقر الناس في سره، لم لا، وهو العالم الذي لم تأت به ولادة، حامد بن عروسة، لماذا لا يحصل على أعلى الأصوات، لعل هذا يؤكد رأيه الذي لم يتنازل عنه في يوم، أن ناس البراري صيع ولمامة البشر على وجه الأرض، لا يستحقون أصلا أن يكون هو وأخوه بينهم، بل لا يستحقون أن يعيشوا من أصله.

لم يكن لأشقاء النادي وأبناء عمومته أن يستوعبوا فكرة الإيهام بسفر الشيخ حامد للحج رغم بساطتها، على العكس تماما، بدوا غير مقتنعين بخروج النادي من المواجهة، فهو سندهم، وعلى رأي الحاج عبد العاطي جساس البهائم وابن عم ابيه، هو طلوقة العيلة، وهو اللي عمل منهم بني آدمين، بل ذهبوا في تبريراتهم إلى أن خروجه وعدم وجود اسمه في كشف المرشحين كفيل بانصراف الناس عنهم، وعن حامد بالذات.

الشيخ كان مغتاظا في نفسه، وإن أمن على كلامهم، البلد في نظره حفنة لصوص، واللصوص ــ حسب رأيه ــ لا

يثقون كثيرا بالمشايخ، والذين يمنحونه أصواتهم هم أصحاب الذنـــوب الصـــغيرة، والمشاكل التافهة، الذين يتسامح معهم، وييسر لهم طرق التكفير عنها.

أوضـــح الـــنادي لهـــم ـــ وهو ناقد الصبر ـــ أنه انتزع ترخـــيص مصنع البنجر من حنك الأسد، وسيتسلمه بعون الله بعـــد الانـــتخابات مباشـــرة، حتى لا يقع تحت شكاوى ربيع والحـــاج قـــرد وبقـــية الزبانية، وحتى لا يثير حفيظة أحد، خصوصـــا وجهاء القرى الأخرى الذين يحقدون عليه علنا، لمـــاذا يقـــام المصنع في أرض البراري البعيدة، ولا يقام في قـــراهم القريـــبة من المركز أو حتى في المركز نفسه، رغم أنهـــم قدموا تسهيلات أكثر منه، بل برطلوا على الموضوع، وعلـــيه فإن الشكاوى قد تجد لها صدى، ومحتمل يخرج من كشوف المرشحين.

لـــم يكن من عادة النادي أن يسر كثيرا بمكنونه، ولا أن يتـــناقش علنا مع الجميع، كاد يشق جلبابه لعدم قدرتهم على معرفة أسرار التعامل مع البرية وناسها، ولما رآهم واجمين، ألقى إليهم بقنبلته، إن أية شكوى قد تخرجه لأنه لا توجد معه

شـــهادة إتمام التجنيد، بدا الأمر لهم تافها، ومفاجئا على نحو آخر، إذ أنهم بربطة المعلم لا توجد لديهم شهادات، معظمهم هرب من العسكرية، و استعيض عنها بدفع البدل الذي كانت الحكومـــات المتعاقـــبة تلهفه منهم حتى تغض طرفها، وتعيد الكـــرة كلما احتاجت، ثم أنهم بالكاد يملكون شهادة لا إله إلا الله علـــى رأي الشـــيخ حـــامد.. حراميه مأصلين يطفشون بالشـــهور فـــي أراضـــي الـــبراري الواسعة، لا تطالهم يد المباحـــث، ولا قدمها، لا طرق توصل إليهم، أرض تغمرها مياه المطر الراكدة طيلة أيام السنة، يركبها الهيش وذيل القط ويـــبرطع فيها الناموس، يبيتون في عشش صغيرة مهترئة، يقنصون الأسماك والطيور المهاجرة.

وحيـــن جاءت الشهادات التي قضى النادي أياماً وليالي علـــى السكك لأجلها، باتت في دوار العمدة لتوزيعها صباح اليوم التالي، ولأنهم شؤم من يومهم، كانت الوهلة أسرع من الجميع، ولعت النار في ذيل قطة، تقافزت على معظم الدور، ومنها دوار العمدة بالطبع، وأتت على معاش الخلق والفاعل مجهول.. يقال إنه راغب، أو مزحة من أبو شبارة، والبعض

يؤكـد أن جماعة المساطيل التي تسهر عند مصطفى نشوان رمـوا مـنقد القوالح المشتعلة على القطة، والذي يؤكد هذا الكلام أن دار نشوان لم تحترق.

ولولا أن الدنيا ساعتها أمطرت، وقالت يا حي مالك زي، لمات الناس كلهم، وأولهم راغب الذي ولعت داره حتى آخر عـود قـش، حـتى أنه عندما أفاق من الهباب الذي شربه، وتدافعت الخلق، وتعالت صرخاتهم، نط في خطوة واحدة إلى دار الفـنجرية فوجـد النار قد جابت عاليها واطيها، قال في نفسـه: علـى الله تكـون الفنجرية ماتت وراحت في زحلة، ويـرتاح مـنها ومـن تمنعها.. فيما بعد قالوا أن أبو دياب السهران حتى لا يخطفه قضاه، حين رأى النار تصهلل، كسر الباب على الفنجرية التي راحت في سابع نومه وأنقذها، وقال آخرون أنه كان موجودا عندها.

ـ أعمـل حسابك كمان يا شيخ حامد أن شباره حيكون معانا على قايمة المرشحين.

.. فين جزمتي علشان أقوم من هنا، يا خبر أسود ومنيل بسـتين نـيله يا ولاد، مش كفايه الفدان،.. حامد بن عروسة

العالم بالأزهر، وأبو شباره الحرامي ده، مع بعض في قايمه واحده!!

ــ ورقــه وسخه يا شيخ حامد، أنا عارف (يضحك) لكن أنت عارف أن نص البلد ولاد كلب وحراميه، والنص التاني غلابه دقه، الحرامية بيخافوا من شباره، والغلابة طمعانين في قمع زيت.

.. يــا وكســه ســوده، الدنــيا جابت آخرها يا ابراهيم يا دسوقي.

ــ مــا تنســاش أن وجود أبو شبارة معانا حيسندنا ضد الجماعــة إيــاهم، ثــم أن مناه ونور عينه أنه يبقى عضو، وبعديــن الشــاي والسكر والملطي حيكون على ودنه، وإيه رماك على المر.

ــ والله أنــا خــايف بن الهرمة ده يزيد ويطغي يا نادي يا خويا.

الــنادي يضــحك علــى آخر ما يستطيع.. في الجمعة الأخيرة دخل الجامع، والشيخ على المنبر على وشك أن ينهي الخطبة وهو يقول:

ـ فـي كـل يـوم جمعة ساعة إجابة، علها تكون هذه السـاعة، ادعوا الله جميعا، وأنتم موقنون بالإجابة.. أدعوني استجب لكم ، وإذا بمصطفى نشوان يرفع يديه عاليا وهو لا يدري أن النادي وراءه ويقول : ربنا يريحنا منك.

ركــن الشــيخ ظهــره للمنبر، على مسافة قريبة تربع إســماعيل يقــرأ ورده، لــم يبق في الجامع أحد، إلا نشوان الفــراش الذي رمق الشيخ من خلف شباك الميضة الملاصقة للجــامع مباشرة، وبحركة ألعوبان تليق به، ترك باب غرفة الشيخ مغلقا، والمفاتيح معلقة به، أخذ ذيله في أسنانه وانسلت سريعا قبل أن يستفرد الشيخ به، ويسم بدنه كعادته.

كان من عادة الشيخ أن يقضي الساعة المتبقية بين درس العصــر وأذان المغــرب فــي غرفته الملحقة بالجامع، يؤم المصلين عصرا ويلقي الدرس، ثم يؤمهم في صلاة المغرب، ولأنــه رجــل حويط وقراره غويط فهو يتوقع أن يمر أحد المفتشين على المسجد، وقت المغرب هو المفضل لديهم، ولن يعدم الأمر أن يتسلبط المفتش، ويذهب مع الشيخ غصبا عنه

إلى داره للعشاء، رغم أنه يخشى بأس الشيخ ولسانه المفلوت، وحججه التي لا تنتهي.. نميرة عيانه وراحت للدكتور والدار ما فيهاش ولا لقمة.. ناهيك عن أن الشيخ لم يكن يبقي طعاما لأحـــد بعده، وحتى إن بقي شيء يضعه تحت سرير غرفته، يـــتربس بابها ويشيل المفتاح في جيبه، وإن تأخر الدمرداش كعادتـــه عن الغداء، ينتظر ولا يأكل إلا بعد أن يعود الشيخ، ويخرج له نصيبه بنفسه.. بالسم الهاري أنت واللي مخلفينك.

انكشف الشيخ على حقيقته في المرة الأخيرة، حين أمعن فـــي عزومة المفتش بالباطل، موهماً إياه أن لديه دكر عدس معتبر، ومع كثير من الأسف والأسى ليس لديه لحم أو سمك يليق بمقامه، أو ينتظر ثلاث ساعات أو أربع حتى يطيب ديك الملطـــي الكبـــير، لكن المفتش قبل الدعوة وآثر الذهاب مع الشـــيخ حتى لا تظهر طفاسته أمام المصلين، وأن همه فقط على بطنه.

عـــند العشاء اكتشف المفتش أن الشيخ ضحك عليه، وأن هـــناك دكـــر وز معتبر أفشت سره نميرة، لذا رد له الصاع صاعين، والتهم نصف الدكر أمام الشيخ الذي كاد يبكي.

.. بالسم الهاري يا حضرة المفتش.

ـ بـتقول حاجـه يا شيخ حامد، ربنا يوسع عليك زي ما وسعت علينا.

.. والله مـا نا عارف، إذا كان الدكر ده من بتوعنا ولا من بتوع الجيران..

لم يكن الشيخ بخيلا لهذا الحد، كريم من جيب الآخرين، لكـنه لـم يكـن يكتفي بطعام، كأنه يخشى أن ينقرض البط والإوز مـن العالم كانقراض الديناصور، وبطنه كانت غالبه علـيه، يكـرم الضيف عند حضوره، وإن تظاهر بغير ذلك، لعلـه كان يخشى الأيام الضنك التي ذاق مرارتها وهو صبي عندما انقطع الفيضان، ولم تعد هناك حياة على الأرض، حتى مـن الهيش أو ذيل القط، ولم يكن هناك رغيف كامل في أي دار في البرية.

كانـت العـائلات تتبادل فتات العيش فيما بينها، وظلت عائلـة أبـو عبده والد الشيخ ثلاثة أيام بلا زاد، حتى كادوا يـأكلون الطيـن، والأنكـد أن أبو عبده كان يخبئ زلعة من الذهـب أعطتها له أمه قبل أن تموت، وضعت الطين فوقه،

وغطـــته بردة الدقيق، وحلفته بأيمان المسلمين ألا يفتحها أو يخـــرج الذهب لأي سبب إلا لقتيل وعليهم دية، كانت وصية أمـــه ألا يتعـــتعه من مكانه إلا لشراء الأرض من الحكومة، وفك زمامها.

ورغـــم ضيق الحال، إلا أن الوصية لم تكن لتمنعه من إخـــراج الجنيهات الذهب في هذه الأيام السوداء لولا خوفه، وحيطـــته من أن يتهم بسرقتها، لذا كفى على الخبر ماجورا، ووضـــع على بطن العائلة زلطة كبيرة، كل خمسة يتفرجون على الرغيف قبل أن يمزعوه، إلى أن انكشف الكرب وفتحها الفتاح، وعادت المياه.

.. دا غموس يا حضرة المفتش.

ـــ وأنت كنت سبت غموس لمين يا حامد قبل كده؟!

.....

أفاق على صوت إسماعيل.

ـــ مش حنشربوا شاي يا شيخ والا إيه؟!.

انتقل إلى حجرته، وخلفه إسماعيل يتسحب، عندما رأى المفتاح في بابها، سب الفراش وعائلته علنا.. الواطي بن الواطي، وتوعده.

ـ سيبك منه يا راجل، دا واحد رمه وناقص، وعامل زي الطين الرهريط، لا يبني ولا يليس، زي بن عمك، وقلت لك قبل كده دول متفقين مع بعض.

.. ورحمة اللي ميتين لك يا شيخ سماعين لأنتف شنباتهم.

الشيخ يعرف أن نذالة ابن عمه الحاج قرد ليست وليدة اليوم، أرشل من يومه، ويعرف أنه اعتلى المنبر في غيابه مماحكة فيه واستفزازا له، وأن جهله وحقده القديم يصوران له أنه يعرف أكثر منه، وبطنه الوسخة المملوءة طينا تدفعه للتنغيص عليه دائما، وهز صورته لدى أهل البرية، والذي يغيظ ويحرق الصدر أنه يحاول تقليد حركات الشيخ، وطريقة أدائه نكاية به، خلع العمامة والنزول من على المنبر وتكملة الخطبة وهو واقف بين المصلين، والناس الغلابة يخشون بأسه، إذ يستطيع أن يسلط عليهم أخاه الفرماوي الحرامي

مقطـوع الـيد لسـرقة بهائمهم، وعلى الأقل يشي بهم عند الحرامـية، ويدبـر مكيدة من هنا أو هناك، والناس بالأخير يبـتعدون عن الشر ويغنون له، لعلهم يدركون ـ وإن أخفوا وخافوا ـ أن وفا والفرماوي ناس فرط لا قيمة لهما رغم أن أباهما الحاج قرد يملك الآن معظم أراضي العائلة التي شفطها زورا وبهتانا، وأصبح أغنى أغنياء البرية، إلا أن ذيل القط لا يتعدل، والهيش لا يطرح عسلا.

رجـل نابـه أزرق، وابنه وفا ألعن منه بطوفين، ينتهز الفرصة وراء الأخرى لإحراج الشيخ ـ إن لم يدبرها ـ لكن الـذي فقـأ الدمـل هذا اليوم هو المشئوم بن المشئوم فراش الجامع، الذي يفرش الأرض لزيت حار ويوالس معه لإحراج الشيخ.

ـ علـي الـنعمه مـن نعمة ربي يا شيخ حامد أن وفا المتعوس والفراش النتن ده، كانوا ضاربين حجرين مع بعض قبل الصلاة.

يسـند رأسه للحائط، يلف كوب الشاي براحتيه، يعرف تمامـا أن حقد ابن عمه عليه وعلى أخوته حبل طويل ممتد

مـــن زمـــن بعيد، رغم أن أولاد عمه تربوا معهم في دارهم ـــ دار أبو عبده ـــ ايد بايد، ولقمة بلقمة.

مر أمامه شريط طويل منذ أن وطأت قدم جده البحيري الكبير أرض البرية، بقايا لصوص ومطاريد في أرض بور، نصـــفها ملاحات، والنصف الآخر يرتع فيه ذيل القط، لكنها بعيدة عن أعين الناس، وأبعد عن عيون الحكومة، ولما مات البحيري الكبير، خلف للجميع طول العمر، وأرضا مشاعا لا بـــأس بهـــا، وكـــوم بنات، وأولاده الثلاثة، الشابوري، زينة الـــرجال، صقر العائلة، والمعتمد الرسمي كأكبر حرامي في المنطقة، والذي من سوء حظ العائلة وخيبتها الثقيلة لم ينجب، ربمـــا لطول المدة التي يقضيها طول السنة في الغيط، وربما لأن عـــياره طـــايش كما تقول النساء على الحنفية.. والثاني الشيخ أبو عبده الواقف على مشارف عالمية الأزهر، والولد الصـــالح في الجنس الطالح، وهو ـــ فيما بعد ـــ والد الشيخ حامد بسلامته والنادي وخضرة.. وآخرهم الحاج قرد وأولاده وفا ـــ لا فض فوه ـــ والفرماوي خليفة عمه الشابوري، وابنة وحيدة هي حفصة.

خـــرج أبـــو عـــبده من الأزهر، وترك العالمية على نن عيـــنه، وتسلم مهمته ككبير للعائلة بعد وفاة أبيه.. الشابوري وبقية العائلة يسكنون الغيطان، لا يعودون إلا في شهر أمشير حيـــن تشـــتد العواصف وتكثر الذئاب، وخوفا من أن تموت الـــبهائم.. العائلة تزرع وتحصد، وأبو عبده يبيع المحصول، ويصـــرف على العائلة حتى مطلع الإيراد القادم، يقوم على أكلها وشربها وكسوتها من مجاميعه.

أمـــا قـــرد فقد عاش مريضا، حاله بالبلى ويصعب على الكافـــر، كانـــت شـــقاوته في طفولته وصباه تنبئ عن رجل يســـتطيع أن يركـــب الـــبرية، وطبيعتها الصعبة والوحوش الطالعـــة مـــن الجحور، لكن نزل عليه سهم الله مرة واحدة، والروماتويد أخذه في سكته، سد مراوحه ودفعه للرقاد لشهور متواصـــلة، ثـــم لسنين طويلة، بين الحياة والموت، إلى الحد الـــذي دفعهم ـــ رغم الفاقة ـــ أن يشتروا كفنه، ولأن حالته كانت متأخره، وعزرائيل يروح ويجيء عليه، كأنه حاطط له العقـــدة فـــي المنشار، لم يحتفظوا بالكفن في مكان بعيد عن العـــيون، بل وضعوه جهارا نهارا في الشنشة العليا لأوضة

المسافرين، يشوفه الرايح والجاي، تهيأوا لوصول عبد الرحمن لقبض روحه في أية لحظة، والشيخ السخاوي والد الشيخ إسماعيل يتكئ بجانبه، يقرأ عليه التعاويذ، يعب الشاي بصوت عال، ويتحسس أنفاسه من حين لآخر، وحين يسأله أحد عن الحال يتمخط ويقول: الحالة طاخ على باخ، اللهم اجعلنا أموات ولاد أموات.

ومع أن الحمل كان ثقيلا على الشيخ أبو عبده في الأول، والعائلة تجد اللضى بالتيلة، إلا أنه باع جنيها من الذهب من وراء الجميع، وحط أخاه المريض في عينه، وزاد اهتمامه بأولاده، وفا وحفصة بالذات، اللذين عاشا في دار أبو عبده مع أولاده يأكلون من طنجرة واحدة، أما ثالثهم الفرماوي فقد ظهرت مواهبه في السرقة مبكرا وأفصح عن حرامي عتيد، وأصبح الذراع اليمنى لعمه الشابوري، صحيح أنه لم يكن يسرق غير بط العائلة وأوزها، لكن تلك هي البداية، وحجر الأساس في الطريق الطويل إن شاء الله.

ويوما بيوم، وسنة بعد أخرى، والشيخ أبو عبده ــ طالب من الله ولا يكتر على الله ــ يحمل أخاه للحكيم في بندر

دسوق، يشيله على صدره هيلا بيلا، هو الوحيد المتعلم، الذي يعـرف سكك البندر، والروماتويد حباله طويلة، كأنه بز في لـوح خشب، والحاج قرد كان الله في عون عونه، عافه كل شيء إلا المرض، لكنه عاند وعاف كل شيء إلا الحياة.

يـتعافى ببطء، والدم رد في وجهه، وبدا أن شبح الموت يبـتعد عنه شيئا فشيئا، ولم يعد عبد الرحمن يخطر على بال أحـد إلا مـن باب ربنا يكفينا شره، ولما اقترب شفاؤه، بدا محنيا وظهره مقوسة قليلا، حشه المرض وقطع وسطه، لكنه فلفص منه وبدأت عظامه تقوى.. قعد بين حيطان البيت سبع سنوات إلى أن شفي تماما، يخزي عين الشيطان، وفي الليلة التـي تهـيأ فـيها للخروج إلى البرية في زهزهة القمراية، أحضر أبو عبده السماحي من البندر وهات يا طبل، وهات يا زمر، وجدوا كفنه الذي نسوه من زمن بعيد، باش وأتت عليه القرضـة وأصـبح مثل رتينة الكلوب، هشا كدريس البهائم المحمص من سنة أعلى السطوح.

فـات الحاج قرد من خرم إبرة، عتق وشد حيله، إلا أن عظـام وجهـه كانـت بـارزة من كل ناحية، تبدو بلا لحم

يكسوها، كأنها مدهونة به فقط، وجه معصعص وأطلال حياة، لـذا أطلقوا عليه من خلفه الحاج قرد، مع أنه ليس حاجا ولا يحـزنون، والشيخ أبو عبده سمى ابنه الشيخ حامد على اسم أخيه، والشيخ يهزأ في كل شاردة وواردة منه.

.. ما لقوش غير ابن الهرمة ده يسموني على اسمه !!

بشفاء الحاج قرد احتاج الأمر إلى إعادة توزيع الأدوار، إذ أسـندت إلـيه، وبالأحـرى هـو الذي أسند لنفسه مهمة الإشـراف على الزراعة، يركب الحمارة من طلعة الشمس، ويذهـب إلـى الغـيط، ليرجع في الليل بعد كل عشا بعشا، وأحـيانا بعـد يوميـن أو ثلاثـة، أصبح المسئول عن جمع المحاصـيل وتصريفها، قبض الإيراد ودفع الإيجار، لكنه في النهاية يسلمها عن طيب خاطر إلى أخيه الشيخ أبو عبده.

ومـع أن المرض جعله حويطا وخبيثا بعض الشيء، إلا أنه باكتمال شفائه ضربها صرمة، ولم يعد يعبأ بأحد، اللهم إلا احـترامه التام، وحبه الظاهر لأخيه الأكبر أبو عبده، كانت محبـته تطغـى على لؤمه، يعطيه الإيراد، وبين وقت وآخر

يرسل له غلق البلطي أو البوري والقراميط، وطيور الشرشير التي يصطادونها أثناء رحلتها في الشتاء.

تشعبت مسئوليات أبو عبده من كبير للعائلة وسط العائلات الأخرى إلى محكم في مجالس سرقة البهائم، وفي غمضة عين بدا أنه يتململ في مكانه، ارتخت يده، ودخل في زمرة الدراويش، ولأنه كان أكولا بطبعه، فقد انشغل في العزومات، والديوك الملطي، والبرايم المعمرة صحبة المشايخ الكبار، وعلى الناحية الأخرى، اتسعت الساحة أمام الحاج قرد، الذي قبض بسلامته على الإشراف الزراعي وتربية البهائم، إلا أنه لم يكن يجرؤ على تجاوز هذا الحد، وظلت محفظة العائلة التي تحتوي على الجنيهات القليلة بحوزة أبو عبده وتحت باطه، هو الوحيد الذي يشتري لحما كل أسبوع، ويذهب إليه وحده إيراد الغيطان من الأسماك ــ يوزعها بعد ذلك، إن وزع، وكيفما شاء.

شب وفا زيت حار بن الحاج قرد مع أولاد عمه حامد والنادي وخضرة في دارهم، يكبر معه حقده يوما بعد يوم، ومع أنه كان على حجر عمه أكثر من الباقين، إلا أنه راح

يلعـــن الحـــظ الذي جعل إيراد الأرض كلها، ومصير العائلة رهن مشيئة عمه وأولاده الذين يتمرغون في العز والنغنغة.

ومع أنه كان يطاله وأخوته من الحب جانب كبير، إلا أن فشله في الدراسة، ونجاح الشيخ حامد، عمق بذور النقمة في قلبه، رغم أنهما كانا يعيشان معا عيشة كاملة في بندر دسوق، وفي غرفة واحدة استأجرها لهما أبو عبده، يذهبان معا للمعهد الأزهـــري، يتلقيان الزوادة كل أسبوع، ويرسبان معا، يتذكر الشـــيخ حـــامد أنهما كانا يعرفان بأن سقوطهما في الدراسة ســـوف يذهب بهما إلى طريق من اثنين، الفلاحة أو السرقة، فاصطنعا محاولة ساذجة للانتحار، إذ قفزا من أعلى السطوح علـــى أكياس القطن المشونة في الأسفل، لكنهما لم ينجوا من عقاب الشيخ أبو عبده الذي أمسك بهما وقطع داغهما، رماهما من أعلى كوبري المصرف.

ـــ كنت اكتم على نفسه يا شيخ حامد، غطسه وريحنا.

.. هو أنا كنت عارف آخد نفسي ياسماعين، دانت عليك حاجات تطرش.

ـــ يا طاخ على باخ، يا طاخ على باخ.

رســب وفــا مرة أخرى، عاد أدراجه للبرية، يلم خيبته الثقــيلة، ويدق أوتاد حقده، وحامد أخذ طريقه إلى المجاورين في الأزهر، ينجح سنة على الحركرك، ويرسب ثلاثة.

ولأن وفا ظل لا يذوق اللحم أو السمن إلا في بيت عمه، فقــد غم الحقد على قلبه، لكنه لم يكن يجرؤ أن يبوح بذلك، إلــى أن جاءت اللحظة التي كان يظنها بعيدة، سقط أبو عبده مــن طوله في غيبوبة مفاجئة، وتحلق أولاده حوله، بانتظار خــروج السر الإلهي، ومعهم عمهم الحاج قرد الذي استعجل كــوب ماء بسكر لأخيه كشربة أخيرة للوداع، ثم مد يده إلى جيــبه لانتشال محفظة العائلة، في اللحظة التي أفاق فيها أبو عبده من غيبوبة السكر الذي كان مريضا به، وهو لا يعرف، أحــس بأصــابع أخيه مدسوسة في جيب صديريته، انتفض بصوت واهن :

ــ لسه شويه يا حامد.

لـــم يصعد أبو عبده إلى السماء، لكن الحاج قرد لم يترك لـــه شيئا على الأرض، لم تكن الفرصة لتفوته، وتمر مرور الكرام، المرض جار على أبو عبده، هد حيله وسرق روحه، وجعله يقترب أكثر فأكثر من حومة الدراويش، وبدأ يوقن أن لـــه رجـــلا واحدة في الدنيا، صحيح أن عينه مازالت وسط رأســـه، لكـــن أعباء مرض السكر أرغمته على التنازل عن بعـــض مسئولياته وأصبح زاهدا في الدنيا، خاصة أنها منعته من الأكل، المتعة المفضلة لديه، والذي نغص عليه عيشته أن الدراويـــش يلهطـــون اللحـــم وينسفون البرايم المعمرة أمامه وعلـــى حـــبة عينه، تراخت يده يوما بعد آخر لثقل حركته، وهوانـــه علـــى المرض، وعليه انتقلت حركة العائلة بحالها ومحـــتالها، إيراد الأرض، والإيجار، والأنفار إلى يد الحاج

قـرد، الذي ضمها لصدره ضمة القبر، ولولا بقية من محبته لأخـيه، وخشـيته أن تـثور عليه العائلة كلها، لأخذها من قصيرها، عيني عينك، واعتلى عرش العائلة المجيدة، وأزاح أيـا كان عنها، كانت سنوات المرض البطال قد أكلت نصف قلـبه، وأشـعلت شبقه للحياة مما جعله مهيئا ليكنس الحاضر والبايت، ويدوس على أجعص جعيص، خاصة أنه ليس كبقية العائلـة، وبقـية أهـل الـبرية الذين يبيعون أرضهم ــ إن وجـدت ــ لشراء اللحم والجلاليب الصوف من البندر، ولا يفوتـه يـوم إلا ويتـندر على عائلة المناصرة الذين امتلكوا خمسـمائة فـدان، باعوا أكثر من نصفها على بطونهم، على نص أوقية دخان، وجلابيه كشمير.. إخص عليهم، ناس دنف، ماشيين على بطونهم لا ظابط ولا رابط.

ومع ان الحاج قرد يموت في الحياة موتا، إلا أنه لم يكن يجـرؤ علانـية علـى تخطي القانون الضمني الذي رسخته العـائلات والعادات والتقاليد، الكبير كبير، والصغير صغير، لـم يكـن ليتخطى أخاه الأكبر أبو عبده ويستولي على قيادة العائلة، مع أن الانقلابات كانت على ودنه في كل حته، وفي

كـل أذان، لكـن بقية من ظل أخيه، وخوفه أن يأكل الناس وجهـه، تغلـبا على نوازعه التي كشر عنها منذ امتدت يده لتبطش بمحفظة العائلة.

ومـع أن أقصـى أمنيات العائلة في وقت ما، كانت أن يشفى قرد من مرضه أو يموت رحمة به، إلا أنه عندما أحس بشفائه هيأ نفسه للحياة تماما، ليس كعابر سبيل، وإنما ككبير للعائلـة، بل للبرية كلها، ولم يكن ليقبل على الإطلاق أن يقع مـن قعـر القفة، ويعيش على الهامش، وإن لم تأته القيادة، فليذهب هو إليها.

عندما تلعب الفكرة برأسه، تدور عيونه حول نفسها كذكر الثعلـب، يخرج محفظته الفارغة، يطرقع محابسها، ويطرقع أصابعه في الفضاء، يردد وهو يغني وحده نشوان:

بالفلوس بالفلوس
على أتخن شيء تدوس
فهي الفصاحة لمن أراد تكلما
وهي السيوف لمن أراد قتالا.

صحيح أن هناك بعض الحزازات التي عششت في النفس، منها أن أبو عبده كان الوحيد في البرية الذي بنى دارا بالطوب الأحمر، وصحيح أيضا أن القرعة وقعت عليه بدلا منه ليتعلم في الأزهر حتى وصل إلى العالمية، واصبح له شنة ورنة تركت آثارها في النفوس، لكنه في النزع الأخير لم يستطع أن يزيح صورة أبو عبده وهو يحمله ليالي بطولها إلى الحكيم في بندر دسوق، وإلى المجبراتي في نواحيها، ألا يكفيه أن أخاه لم يفعل كالآخرين، وتركه يموت في أي قفه كما فعلت كل العائلات التي تركت أولادها كوم عظم يأكلهم الروماتويد على مهله، ويموتون جنب الحيطان.

تخايله دائما صورة أخيه، وهو يحمل القفة التي تلمه بين ذراعيه، يضمها وحده على صدره، ويصعد به سلالم الحكيم، رافضا العروض الكثيرة للمساعدة، يكبس على نفسه الحنان الذي يكاد ينز من عيني أخيه، فتعود نوازع القيادة إلى الوراء، وتتواري شهوة الحكم التي كان الملعون زيت حار ابنه يصب عليها من زيته صباح مساء.

يتمنى لو يعصر عينيه، ويخرج منهما صورة أخيه، وهو يسـنده إلى الحائط بنفسه، واضعا خلف ظهره المخدة الكبيرة في غرفته التي لا يدخلها أحد، ولا حتى زوجته، وهو يردد.. يا غالي يا ابن الغالية، ينفذ وصيتي أمه ألا يخرج الذهب إلا لفـك زمـام الأرض، والثانية أن يأخذ باله من أخيه حامد، ويضعه في نن عينه، يحممه، ويطعمه بنفسه، ولا يأمن عليه أحداً، حتى يبان لها صاحب.

وبما أن الحاج قرد لا يعنيه الأكل من قريب أو بعيد، ولا هو من الذين يمشون على هم بطنهم، لذا لبد في الذرة، غير متعجل، واعيا بأن قرن الشمس سوف يطش السحابة آجلا أو عاجلا، غير عابئ بمواويل الحقد التي يبخها المحروس ابنه.

لقـد اختار أن يقعد في المنطقة الوسطى الطرية، دوره يكـبر يوما بعد يوم، لا يترك فرصة إلا ويطبق عليها، ولا هبة ريح إلا ويركبها، دون أن يُشعر أحدا، لكنه على أية حال دق الوتد في الأرض، وجلس في انتظار الريح.

فضّل أن يلعب هذا الدور بين أخيه الأكبر أبو عبده الذي دانـت له البرية، كبير العائلة، وأكولها، وداره حمراء، وبين

أخـيه الآخـر، الشابوري، فاتح الغيطان، سيد الحرامية في الـبرية، وعين أعيانهم، وجد موقعه بين اثنين عظيمين، مما دفعه لأن يفنجل عينه على الآخر وأن يترقب، ويدفس شهوته تحـت حلمه مؤقتا، ورغم حبه لأبو عبده، إلا أنه يموت في الشـابوري، إذ يعتـبره الجناح الآخر الذي تطير به العائلة، يقضي السنة بطولها في الغيط، داخل تقفيصة من حديد حتى لا تنهشـه الذئاب، ينام فيها وحده ومعه البندقية أم روحين، يحـرس الأرض والضـرع، يقـوم على خدمته الفرماوي بـن الحاج قرد، خليفته، والشبل الصاعد في الكار الواعد، لا يزرع ولا يقلع، وظيفته السامية حماية أموال العائلة من زرع وبهائم، عشرين شبة جاموس بالتمام والكمال، ولم يجرؤ أحد لسنوات طوال على الاقتراب من أملاكهم، ولا حتى من شجر التوت الذي يحوط المكان، بما يستثير شهية الأطفال للاقتراب مـن الأشجار المسحورة، العصية المنال، والبعيدة عن شنب أتخـن تخين، لكنه يروي شبقهم حين يأمر أحد الشغيلة بفرد جـوال مشـقوق، أو غرارة كبيرة أسفل شجرة يقوم بهزها،

ويتركهم يلتقطون التوت، زاجراً إياهم بعد ذلك حتى لا يطول العشم الذي يتولد تلقائيا في نفوسهم.

ولم يستطع أحد أن يحوم ولو لمجرد حومة حول الأرض التي يحرسها الشابوري، إلى أن جاءت ليلة، كان هناك من يدور حول بهائم العائلة، وبالأحرى حول شنب الشابوري الذي يسمع دبة النملة، تركهم يعسون لليلتين أو ثلاثة، يريد أن يعرف قبل أن يمنع، اختبأ في ركن التقفيصة، وغطي نفسه بالقش، معه ولي عهده الفرماوي، شاهدهم وتأكد منهم، تركهم يحلون رتع البهائم، ويأخذونها من سكات ويرحلون، تركهم يعملون عملتهم، وقرر أن يقطع رقبة كبيرهم قبل أن تطلع لها شمس.

عندما علم المكاوي الكبير شيخ المنسر أن البهائم تخص الشابوري، لطم خدوده، وشق هدومه والدنيا كحل، وقال يا حيطة دارينى، طلب من كل واحد منهم أن يودع عياله ويجهز كفنه، أو يقوم بأحد أمرين كلاهما مر، إما أن يهج من البرية كلها، أو يحلق فردة من شنبه، ويذهب بالفردة الأخرى إلى الشابوري، يعرف الشابوري عز المعرفة، رجل دغل،

قلبه ميت حجر وحيطته عالية، ويا ويله يا سواد ليله من ينط علـيها، أو يعاديـه ويدوس على طرفه، رجل لا يأسو على أحـد، ويـا خراب داره من يأسو أو يقسو عليه ــ أو حتى يعدي من قدام مناخيره.

يعـرفه جيدا مذ كان حراميا معهم في أول عهده بالسلم الوظيفـي، يثبـت الحرامـي طول باعه ودراعه في عملية جماعـية بقيادة أولاد المكاوية، يترك الطبخة بكاملها لهم بعد أن يقـدم أوراق اعـتماده، ثم يتحول بعد ذلك إلى الاستقلال والعمـل الفـردي، وأولاد المكاويـة الذين يسرحون صغار الحرامـية والمبتدئين قبل أن يحترفوا، ويحصلوا على صك الـبراءة ــ يحذرونهـم من سرقة بهائم فلان أو علان، فهم أصـحاب المدرسة ومشايخ الطريقة، ورثوها عن جدتهم ثم أمهـم، ويعـرفون خريجيها خير معرفة، بالواحد، يعرفون الشابوري ومواهبه، وقساوة قلبه، قلبه الزلط.

الشـابوري لـيس قاسـي القلب، لكن ظروف المنطقة المتروسـة بالفواعلـية والنتاشـين جعلته ذئبا قبل أن تأكله الذئـاب، وطـبق نظرية الردع العام كما أنزلت، حين طلع

أحدهم على شجرة توت دون إذن، دون أن يرتدع لمهابة الشابوري التي تغطي ستين فدانا، لم يأبه لطلعته البهية، ولم يرتجف حين رآه، واستمر في غيه، تقدم الشابوري منه، اكتفى بقطع أذنه، هبد فيها شهرين ، وعاد للبرية مثل الأسد، ضرب عيارين على كوبري المصرف والحبس للجدعان، استراتيجيته واضحة، يتصرف مع المواقف الصغيرة في الحال، ويترك الكبيرة تنضج على مهل، ليعرف قرارها ومخبأها.. ومن يعتدي على حمى الشابوري يقرأ الفاتحة ــ إن كان يحفظها ــ على روحه.

حرامي عظيم، لكنه لا يعتدي على أحد من الباب للطاق، لا يسرق، ولا يضرب إلا من باب رد الاعتداء، أو الوقوف في وجه الهجامين الأنتان الذين يغيرون على البرية، ويروعون ناسها بعدما أخذوا السرقة حرفة لا معلمة، والحرامي المحترم لا يسرق ولا يعتدي.

الشابوري الذي أكل أكثر من مائة كبدة ديب، شاهد أحدهم، والدنيا صفاري شمس، في وقت غير متوقع للسرقة، مباغت، ومخالف لأعراف اللصوص واللصوصية، يسرق

عيني عينك، عبأ غرارتي قطن، وسحبهما لأول الطريق وقال بعلو صوته: إبقى تف على قبري يا شابوري لو عرفت.

نشـــه الشابوري العيار المتين، تحت باطه، وبعد شهرين أخذتـــه الحكومة المتلكئة دوما، الغاضة بصرها عن البراري وهمومها المتلتلة، وكلب الهول تعرف عليه، وشده مرتين.

قـــال الحاج قرد لأخيه أبو عبده، من باب العشم وإظهار الـــنخوة، والغـــيرة على أخيه: أوعى ترجع من غير أخوك لأقتلك.. فوتها أبو عبده، يعرف أن قرد ليس مرحا بطبيعته، حاد، يبالغ في حدته تعويضا عن ضعف مكانته العائلية وربما تعويضا عن المرض الذي قطع مصارينه سنوات طويلة، لكن السبب الأخير توارى، وأصبح في خبر كان، وقرد تعامل مع ظهـــره المقوسة، ومع أصابع يديه المعوجة دون اكتراث، بل اســـتغلهما فـــي إبراز صورة قاتمة مهيبة له، يخشاه عبرها الآخرون، ولبس وجه الكفار زيادة في الخشية.

يبالغ ويحتد، نيابة عن الجميع، عن أبو عبده كبير العائلة والمتصرف بها وبأموالها، وعن الشابوري الحارس الأمين، الأول يصـــرف فلوس العائلة، والثاني يحرس فلوس العائلة،

وهـو علـى السلم، لا يصرف ولا يحرس، لذا كانت حدته أسرع من طرف لسانه.. اقتلوه، اذبحوه، ابن الكلب، الضايل، توصـياته أسـرع من خرطوش المقروطة أم روحين، وبين مرض أبو عبده وزهده، وغياب الشابوري عند الحكومة بدأ الحـاج قرد يكبر، وتقلوظت عمامته، كان على استعداد ليملأ فـراغ أبـو عبده، وعلى أتم استعداد ليملأ فراغ الشابوري وعلـيه أن يفـك المعضلة.. كانت الأرض عطشانة شراقي، ومهيأة له ولاستقبال حقد ابنه وفا زيت حار من ناحية أخرى، ولكـي ينتصر العدل يحتاج إلى قوة، لذا استعان بابنه الآخر الفرماوي.. الظهير الأيسر، وحامي الحمى الجديد، وإن شاء الله يكون خير خلف لخير سلف، إلى أن يخرج الشابوري من العنـبوكة، وأعلـن الفـرماوي عن نفسه بقوة، استهل عهده بمصادرة عطر عروسة: أشياؤها وحوائجها، ذهبت مع أمها للبـندر، وعادتـا، كـل منهما تحمل صرة، من الفستان إلى الطرحة.. جلابية الصباحية.. ماء الورد، الصابون أبو ريحة، الحبرة والتلية وكل ما يلزم في التهنئة والعزاء.

امــرأة غريبة من أبعد برية جنب المحيط.. سطا عليها المحروس كما يليق بهجام كبير في منطقة لا تعترف بقطاع الطــرق، ولــيس لهــم مطرح في ميثاق الحرامية الأول أو الثاني، أو الثالث.. ولو أن الشابوري خارج السجن لطخه في الحــال ورمى جثته للكلاب، فحرامية العائلات لا يسرقون، يفعلونها دفاعا عن النفس، أو رد اعتداء، لكن الفرماوي افتتح العهــد الجديد بغزوة في منطقة قريبة من البرية، حتى يطلع صوت الولية وابنتها، ويسمعه القاصي والداني ويكون قد بث بــيانه الأول بقــوة، وعبر جميع المحطات، ومن لا يشتري يتفرج.

لعــب الفــأر في عب أبو عبده، اجتمع بالعائلة، وأصدر قراره بتقسيم الأرض والبهائم، وحتى عدة الزراعة، والعائلة انخلع قلبها، فهي آمنة في حضنه، حتى لو بلع الإيراد كله.. هو الحنون، والمتعلم، والمضيئة عمامته بين طواقي القرية، وإذا كانت غيبة الشابوري تهز العائلة، فغياب أبو عبده ينسفها ويجيــب عالــيها واطيها، لكنه ربت على ذعرهم، وقلوبهم،

كانت القسمة على الورق فقط، لكنها كانت طلقة التحذير الأخيرة، وربما الصرخة الوحيدة الباقية في الجسد المترهل.

رائحة الفرماوي فاحت، والظهر المقوسة للحاج قرد تصلبت، وأبو عبده عاف المشهد الأخير، واعتزل في داره، والشيخ حامد يقول حرامي عن حرامي يفرق، والشيخ إسماعيل يلبس بلغته بسرعة على عتبة الجامع، ويقفز خلف الشيخ حامد، يمد يده ليمسك ذراعه من عند الكوع وهو يقول: اعبد ربك تلاتين ساعة، لولا شفاعة لكنا ضياعة، اعبد....

يا جايب خبر الحبيب قصر
يمكن تكون أحلام وتتفسر

يتحس صدره، أسفل بزه الشمال، ينغزه الألم، ينزاح عنه قليلا، ثم يعاوده بقوة، يوحوح، ونميرة تدخل إلى الحجرة، وتخرج أكثر من مرة بسرعة، تكلم نفسها بصوت عال. طقس يومي بجلبابها المنقور من كل ناحية، كأنها نامت في جحر فيران، جلباب الخبيز، به قطع عجين متناثرة ألصقتها حفيدتها، والدقيق يغطيها من ساسها لراسها، كأنها تخبز للبرية كلها، تستحثه بلهجة لوم أن ينهض من الفراش.

ـ بقينا الضحى العالي، قوم فز يا حامد، شوف البطتين وبالمرة تشوف الفيران بتوعك.

.. فيران تاكل جتتك، جتك داهية وأنت عامله زي مكنة الطحين.

بـــيدها المعكوكـــة بآثـــار العجيـــن، تـــبرك على جسده وتقرصه:

ـــ هـــاطلع لباليبك في إيدي يا راجل، قوم شوف شغلة، وأنت قاعد كده زي قرد قطع.

يـــتملص مـــنها، وضـــحكاته تجيب آخر الدار، يهرش الأماكن التي قرصتها، كأنما مسه جرب، يعابثها بلسانه.

.. أخوك صدره واجعه يا نميرة والله.

ـــ مـــن تناحتك، والرطوبة اللي في جتتك، سهر الليالي لأدان الفجر، قطيعة الاستخابات وسنينها.

تفرقع ضحكته كجمل غندور، يهب واقفا، مستندا عليها، يقرصـــها من خلفها، وهي تتملص منه صاخبة، يأخذ طريقه إلـــى أرانـــبه التركي التي تنعتها نميرة بالفئران، لها أسنان رفيعة مدببة مثلها، وحده الشيخ في البرية تقريبا الذي يربيها، أخـــذ دكر ونتاية غصباً عن نن عين إسماعيل الذي أحضر ســـلالتها مـــن عـــزبة بعيدة في إحدى غزواته الكثيرة، يقرأ

القرآن على روح ميت، أو يحيي ذكراه في الأربعين، يجلس علـــى قلب أهل الميت ثلاثة أيام بلياليهم حتى تطلع روحهم، اكلا شاربا نائما، ولا يسلم الأمر من دكر بط في قفة الزوادة كـــي يـــرتاح المرحوم في قبره، وإسماعيل يعابث الشيخ بين حين ومين :

ــ الجماعة عاملين إيه يا شيخ حامد؟!.

.. تعيش أنت يا سماعين، اكلتهم، وقريت لك الفاتحة.

اتسعت السلالة عند الشيخ، لا يسلقها كأخواتها، بل يدقها بنفسه في الصلاية أو الهون الكبير، يصنع منها عجينة الكفتة.

.. فيران، فيران.. خللي العيال تاكل يا نميرة.

.....

يا جايب خبر الحبيب قصر
يمكن تكون أحلام وتتفســـر

الصوت يقترب، كأنه يسقط في حجره، يكاد يخرم طبلة أذنه، صوت الفنجرية، يا ستار يا رب، ونميرة تبادلها التحية

كأرفع ما يكون.. إلحق أخوك يا حامد، إلحق أخوك يا خويا، الـنادي مـات يا حامد، حمل المحامل راح يا خويا، أغمى عليها، وحامد أخذ السلالم في غمضة عين، الفنجرية افترشت الأرض ، لطخـت وجههـا بالطين ويديها فوق رأسها تطبل بواحـدة على الأخرى، وأمه تعثرت في عتبة بابها فسقطت على وجهها وهو لا يدري هل هو فوق الأرض أم تحتها.

لا يقعد على المداود إلا شر البقر، مات النادي، راح كما راح البارح من النهارده، كأنه ما كان، الاسطون، جمل المحامل بصحيح، انقطع حبل الخير يا حامد، وضاعت النخوة والرجولة، الموت ضربك تحت بزك، تعاني ألمه من الليلة الماضية، واليوم عرفت طعمه الحقيقي، مر، مر حنظل يا حامد، ضربك على سهوة، سرق نني عينك، وترك لك البراطيش، الدنيا تدور بك، الدنيا أم الآخرة؟!، أصبحت ملطشة الجميع، لا، لا، استغفر ربك يا رجل، أخوك مات شهيدا، واختار يوم العمل الحقيقي، يوم ذهب ليستلم حجة المصنع من أجل عيون الغلابة، حتى يجدوا عملا وقوتا، ويكون للبرية مكان على ظهر البسيطة، داس على الحرامية، ورمى الحقد والغباء وراء ظهره، لكن الموت أخذه على

مشمه، طلع له في البخت والمقدر، طلع لك أنت يا حامد، حط لك العقدة في المنشار.

لا يـــا حامد، منذ متى وأنت تعارض الموت، تقف أمامه أو تـــتوقف عنده، لا يهمك أمره، ولا حتى حين مات أبوك، يبدو أنك الآن أمام الامتحان يا حامد، وأي امتحان؟!، كل يوم ستكون فيه، وكل لحظة، ما أكلته بطا بطا سيطلع على جتتك وزا وزا يـــا حامد، موت النادي كسر ظهرك، هو أول اليتم، بـــل هو اليتم بعينه، وأنت الآن أمام الامتحان الحقيقي، تقف أمام الميزان تماما، وعليك الاختيار، لا، ليس أمامك اختيار، ستحمل الأمانة، ستحملها.

متسمرا في مكانه، فاتحا حنكه على آخره.. موت النادي حل وسطك، وترك لك البقر ومداودها، عليك أن ترتعها، وإلا ربطـــتك يا حامد، غاب وترك المصنع، والانتخابات، وعمك الحاج قرد، والحاقدين والحرامية على كل لون وفي كل خن يا حدق.

مـــالك يا حامد، مالك وهذه التركة الثقيلة، بين كل لص ولـــص، أربعة أو ثمانية آخرون.. صحيح الأخ فخ، لكنك لم

تكـــن فخا في حياتك يا نادي، كنت الحيلة والسبيلة، والحائط الـــذي نتكـــئ عليه، وتستند إليه البرية كلها، البرية !، تولع الـــبرية فـــي دماغ أصحابها، حتى أصحابها الحرامية شهدوا لـــك، ربيع زعيم الحاقدين، كان في جنازتك مطأطئ الرأس يولـــول كالنساء.. راحت البرية من بعدك يا نادي، شهد لك عدوك، عدو ناصح، يعرف قيمتك وحقيقتك، حتى وإن أعماه حقـــده، ربيع الذي يشكوك للحكومة عمال على بطال، وآخر مرة دفع ثلاثين جنيها ثمنا للتلغرافات التي أرسلها في حقك، ولـــيس في جيبه مليم واحد يوحد الله، وأولاده باتوا من غير عشاء.

كلهـــم شهدوا لك، وإن أعمتهم الغيرة، وأكلهم الحقد، من يومـــك محســـود، كنت تقرأ على الشمعة والقمر لكي تعرف يـــا نـــادي.. وحسادك زادوا يوما بعد آخر، لم تكن فخا في حياتك يا نادي، لكنك أكبر فخ في مماتك.

كـــان الـــنادي في ليلته الأخيرة، قبل أن يصبح، ويذهب لتسلم حجة المصنع قد طلق ابنة عمه الحاج قرد، كتب كتابه، ولم يدخل عليها، والحاج قرد، يا داهية دقي، لن يسكت ولن

يـــنام اللـــيل، مـــن يطلق ابنته، موت.. موت وخراب ديار، عملتها يا نادي....

فعلهـــا النادي بعد أن تأكد أن عمه سحب عرض قطعة الأرض التـــي ســـيقام علـــيها المصنع، حتى لا يكبر النادي ويلعلـــع ويذيع صيته في البرية بعد أن ذاع خارجها، وخوفا مـــن أن تدور الدوائر مرة أخرى ويسحب البساط من تحت رجليه.

.. ومين اللي قال للنادي على الموضوع ده يا فنجرية؟

ـــ موضوع إيه يا شيخ حامد؟

.. أن قرد سحب الأرض يا مشئومة.

ـــ أنا اللي قلت له.

كـــان قـــرد يأمل أن يملأ النادي فراغ أبيه المرحوم أبو عبده، على أن يظل تحت باطه، ورهن مشيئته، لكن ابنه وفا زيـــت حار الذي يكره أولاد عمه كراهة التحريم ملأ رأسه، وحشا أذنيه، بأن النادي سيصبح كبير العائلة والبرية كلها بعد إقامة المصنع.

نعـــم، الحاج قرد كان يحب النادي، وكم تمنى بينه وبين نفســـه أن يكون من صلبه، هو الوحيد النافع في العائلة، لكن مقعـــد الكبير محجوز له فقط، ولا يتسع لشخصين، ومحفظة العائلـــة يجـــب أن تنعس في حضن قرد وحضانة أولاده من بعده.

ورغم معرفة النادي بحقيقة عمه، إلا أن ذكاءه قاده لأن يقـــيم معـــه علاقة وثيقة، مع يقينه أن عمه سطا على أرض الأحياء والأرامل والمتزوجات داخل العائلة وخارجها، إلا أنه يعـــرف أكثر من غيره أنه يمسكه من اليد التي توجعه، يملك العصـــا التـــي تضرب، والمحفظة التي تسند الظهر، ومركز الـــثقل انـــتقل إليه بعد وفاة المرحوم أبو عبده، لذا حاول أن يجاريـــه حتى لا يتعرى ظهره، ونجح، بل ساعده في تنمية أمواله حتى صار أغنى أغنياء البرية، وأغنى من أبو شبارة تاجـــر التمويـــن، يعـــرف أن عمه يحب الجاموسة أكثر من أولاده، لذا دخل تحت جناحه موقنا أن بقعا سوداء تغطي ثوبه وإن ذابت في نسيجه.

.. الراجل ده ضلالي من يومه يا نادي يا خويا.

ـ عارف، عارف يا حامد.

مـنك لله يـا نـادي، تموت بعد أن تتسلم حجة المصنع بساعات، وتطلق ابنة عمك ليلة غيابك.

كان النادي قد زرع الأرض القليلة التي تركها لهم عمه، زرع الأرز قـبل مـيعاده بنصيحة أحد معارفه من مهندسي الزراعة، والبنجر على غير ما اعتادوا، أخرجت على حظه، وأكلـوا الشهد، أنقذهم من فخ موت الأب، وغائلة العم، كان النبوت الصلب الذي كنس كل النبابيت، ومعرفته بالمسئولين في البندر رفعت من قدره وأخوته أمام الناس في البرية وأمام الحاج قرد بالذات، لكنه غادر في وقت غير مناسب.

.. تمـوت، تمـوت يـا ولـدي وتتركني للذئاب، لماذا لا يموت الحقدة والحرامية؟

.. وحـدك يـا حـامد تمضغ الموت، وتشرب لوعته، ولا تسـتطيع أن توزعـه علـى الـناس كما لو كان حلاوة طحينـية، والناس في البرية ليسوا طيبين إلى هذ الحد ليأخذ كل منهم قطعة بكيفه، لو كنت تقدر يا حامد، لو كنت.

يتنهد، وكل تنهيدة بزفرة حارة حارقة، مثل سيخ محمي بخـــرج مـــن روحه، هل تعرف الجنة يا حامد؟، هل تعرف الجحـــيم؟، هـــناك لحظات لها طعم الكرب، وقرى لها طعم الحســـرة، تعـــرفها دون أن تمد مناخيرك باستنشاق قليل من هوائها.

ـــ إجمد يا شيخ حامد، إجمد، وراك رجالة.

.. رجالة !!، رجالة إيه يافنجرية !!!

ـــ وراك رجالـــة بجد، ما تخافش، استلم الحجة وسيبها على الله.

بعينيـــن قديمتيـــن، تحمـــلان الحزن بالكيلة، أخذ يعدو، لا يعرف إلى أين، يشعر أنه يسير عاريا تماما، والدنيا تشيل وتحط على رأسه.

علـــى باب غرفتها، سحبت الكرسي وجلست، لم تفترش الأرض كعادتهـــا، وإسماعيل على حشوة أمامها، يسند ظهره لحيطة الصالة.

أخرجت عصا أبو عبده من خزانتها، واتكأت عليها.

حيـــن تضيق بها الدنيا، تخرج بقايا أبو عبده، تشمشمها وتردها حين تسكن روحها.

لم يرها مخلوق طيلة أيام العزاء، ولا طقت كفها في كف أحـــد، منعـــت عزاء النسوان بعد ثلاثة أيام، وبعد يوم آخر قطعت العزاء كله، ردت صواني الأكل، وقالت تطرشه اللي تاكل في معزة النادي.

أوصـــت نمـــيرة ألا يدخـــل عليها أحد، كائنا من كان، تربســـت علـــى نفسها الباب حين سمعت صوت الحاج قرد والمشئوم ابنه.

ـــ راح اللي كان حيجيب لك حقك يا سماعين.

إسماعيل مثل قطار قديم، بلاد تشيله، وبلاد تحطه، عيناه حنفية عمومية مفتوحة على آخرها، تسح دون صوت، وشيش خفيف حين يشن أو يمسح أنفه بكم قفطانه.

* مـــش كفاية العمى يا خاله، أرض إيه وبتاع إيه، كان نفسي آخدها، وأديها للنادي، إنشاالله يرميها في البحر.

بدا مثل فرخة وقعت في الترعة يوم شتاء بارد، وعندما خرجـــت بالعافية، أو أخرجها ولاد الحلال، ارتكنت مرتعشة إلـــى حـــائط أقرب دار للترعة، صيدا سهلا، مستباحا للرايح والجـــاي ولعبث الصبية، أعمى زادت همومه يوما بعد آخر، رمى تكاله على الله، وحط يده على كتف النادي.

نذرتـــه أمه ـــ بنت خالة عروسة من بعيد ـــ للقرآن مذ خطـــف العمى بصره، لم يكذب خبرا، ولا رد ندر أمه، حفظ القـــرآن عـــن ظهر قلب، لكنه ابتعد عن التلاوة والقراءة في

المحازن، وبصوته العريض الخشن، أخرج التواشيح، تمرس وتمـرد فـي الموالد، يصهلل فيها كمن يطرد كمده، يجوب الـبراري البعـيدة على رجل واحدة، يأكل مثل مبصر وسط دستة عميان، يأتيه البط والملطي إلى باب داره، والذي يتأخر عن المعلوم يا ويله من لسان إسماعيل.

في عز شبابه بدا مثل فحل هائج، أرادت أمه تزويجه من إحدى بنات أخواله العمد، لكنهم تحججوا بعماه، وقبضوا على أرضه.

علـى باب الله، يغيب يغيب، ويرجع لأمه، يجدها دائما عند عروسة.

في إحدى غزواته، شبكت معه البنت التي صب التواشيح فـي دارهـم، وأخرج المرض من جسمها، لكن أهلها زاغوا كأخواله.

صوته العريض يتسع، ينشع بفدان شجن، خطفته هجالة مـن برية بعيدة بصوتها الغنج، أحضرها كما يحضر البط، زرعهـا فـي الدار مع أمه، برك عليها مثل حمار حصاوي ووضع لها الشطة كل ليلة.

وعـــندما تهنت أمه عليه بعد الولد الذي منحه له الكريم وســـماه النادي، غادرته إلى مولاها غير آمنة غدر أخوتها، الذيـــن كانوا عند حسن ظنها، خطفوا أرضه، وبصّموه على الأوراق في نص الليل بعد أن كتفوه بالحبال.

الولد الذي كان حيلته، خطفته الهجالة كي تكتمل الحكاية، وبصـــوته الغاضب الأجش، ترك التواشيح إلى خانة الأصيل والخسيس.

كلمـــة خاله قطعت ظهره.. الأعمى ما يخدش، وهروب ولـــده قصـــم الباقي، مد له النادي حبل الأمل.. الولد حيرجع طول مانا عايش، ثم أنت ناقصك إيه؟!

يشمشـــم في النادي، يضمه لصدره، كأن ابنه الغائب في عـــبه، في رائحة قفطانه، وعروسة تنظر لحوش الدار على امتداد البصر، كأن الميت ليس ابنها، كأنها لم تعد تنتظر من الدنيا شيئا.

ـــ قول يا شيخ سماعين.

.. لو كنت ودنك تمد، تسمع بكا أمك

لو كنت يوم تعرف وجيعة القلب

ما كان خيالك ورب، ولا حصانك تاه
يابو الخدود السمر
يابو القليب حنه
إزاي هانت عليك العشرة يا غالي
بكايا هم عليك يفرش خمس فدادين
وبكايا دم عليك يغطي بقية العمر.

نمـــيرة تأتي على ملا وجهها، تمسد على رأس عروسة، تقـــبلها في جبينها، وعروسة تدق الأرض بالعصا، تريد أن تخرمها وتقول:

ـــ لا يا سماعين، اللي راح عند ربه راح
اللي راح راح وانتهى، قول على الخسيس وانزل
وعلى الأصيل طول.

.... يسح.

.. عارف حكايتك ليه طالعه مندية
علشان بيبانك عسل
والمسالك خضر
عارف كفوفك ليه طالعه محنية

علشان ضفاير الحور
لفت على جبينك
دارت عليك الأرض
يابو القوايم وتد
يابو الضلوع مسند
يابو الجروح مالحه
رايح تجيب المهر والتايهة والغايبة
الكتف دا زاد
والكتف دا ميه
يابو العيون حنه
ومليانه حنيه
ياللي عليك القصد والنيه.

نميرة تروح وتجيء بينهما، تقضي حاجات الدار.. وحد الله امال يا شيخ سماعين، وعروسة دخلت غرفتها من سكات، كأنها أنهت دورها، وحامد الذي حبس نفسه في غرفته، يفرد حصيرة على مقربة من إسماعيل، يضع صحنه، يلف سجائره، يعفر في السماء، كأنه كان في

حلـم ثقـيل، وصـحا مـنه فجأة على خراب رآه فيه، يولع سيجارتين، يمد واحدة لإسماعيل الذي صاح على حين غرة.. انت جيت يا نادي؟!.

فـــي الطريق الضيقة، الناس جلوس على جرفة الترعة، يقطعون كلامهم، وينظرون إليه بعيون أسيانة، لم يكن يتوقع أن يـــندفع أحد ليعزيه، ولا أراد، بدا الأمر كما توقعه تماما، كـــل واحد يعزي نفسه، صمت ثقيل ينتشر في الهواء، البرية استفاقت على موت ابنها، والفلاحون انتبهوا على موت أبيهم، والـــترعة القديمـــة لا مـــاء يمسح عنها كآبتها، حتى البيوت الطينـــية الضئيلة بدت ضئيلة تماما.. غاب ظلك، وانكسرت معه قامة البيوت يا نادي، يشد ياقة جلبابه بعنف، يفح كفرن بلدي محشو بحطب قديم، وكل نفخة تنطلق حادة حارة كقطة علقت النار بجلدها.

ـــ ما تدورش على الحزن يا شيخ حامد.

وجدهـــا فـــي كعب رجله.. الفنجرية، فزع منها لثانية، تمشي وراءه كظله، كأنها ملتصقة بظهره.

.. أدور علـــيه، هـــو مســـتني، جاي لحد عندي برجليه يا ختي.

ـــ وحـــد الله يـــا راجـــل امـــال، والصبر عند المصيبة يا خويا، المصايب تصغر، والمشاكل تكبر يا راجل.

كاد يدفعها بعيدا، التقط حزنا عميقا في سحنتها، لا تكفي جـــبال الأرض لتفكه، حزن راسخ، ليس كحزن النساء، من أيـــن تأتي هذه المرأة دائما بكل هذه الصلابة؟!، فك تكشيرة جبينه واستجاب لها، إذ ربتت على كتفه وجذبته برفق من كم جلبابه، واستدارت معه إلى داره.

ـــ والله لو ينفع لكنت فديته.

طـــول عمـــره، وهو يأخذ الفنجرية على محمل الهزل، واحـــدة مـــن المقاطيع التي تمتلئ بهم البرية، جاءت من أية داهية، لكنه كان يحمد لها أنها تعمل للقمة عيشها، تصحو من الـــنجمة، تمشي ثلاثة كيلو في عز البرد حتى تركب القطار، تذهب للجناين البعيدة في أدفينا على بعد عشرين كيلو، تعود

في الضحى، تفرش غلتها، تبيع بالمعروف، وتكسب من عرق جبينها، والصيع على الكوبري لا شغلة ولا مشغلة، يناغشونها في الرايحة والجاية، تنأى بنفسها عن المماحكات، وإن كشرت عن انيابها أحيانا حتى لا تأكلها الذئاب، تنتهي من الخضار وحصرم الفاكهة، تخلع عنها ملابس الشغل، تأخذ حمامها، وتلبس الشفتشي، وبعد العصر تبدأ عملها الشفتشي الآخر.. بلانة، تنتقل من بيت إلى آخر معززة، هي التي علمت نساء القرية أن العسل الأسود ليس للأكل فقط، ولا لعلاج الكحة، تعيش وحدها في بيت واطئ أشبه بالخزانة، في منتصف الشونة البحرية، بيت وحيد، وامرأة وحيدة، أكداس الحطب تحوط خزانتها من كل ناحية، وتبدو منتحية عن بيوت القرية عبر حارة طويلة ضيقة، أشبه بالسرداب، لكنها مفتوحة على الجانبين.

جميلة رغم السنين، أكلتها الألسنة عند مجيئها للبرية، لكنها شدت شدتها على رأسها، ولم تخلعها في الشارع أبدا حتى استرخت الشهوات عنها، بدت كرجل يكدح ويعرق، يبيع ويشتري، ارتدت جلبابا واسعا، وسكرت الفتحات العليا

عـند أثدائهـا، ولـم تنحنِ لأحد، وقعت في عرض النادي، أعطاهـا الخـزانة، ومـبلغا من المال ترده أولا ترده حين ميسـرة، فرد عليها بطانيته وأخذها في حماه، وعندما جرى القرش في يدها، فردت جناحها وغطت المطاريد، لم تمنحهم شـيئا، بـل خففـت عمل الخضار عن كاهلها بمساعدتهم، وانتشرت يوما بعد آخر تحت إبط النسوة، وبين أفخاذهن، فتاه سرها في أسرارهن.

جمـيلة من الغجر، قال النادي وصمت، بدا كما لو كان الوحيد الذي يعرف خبيئتها، ولم يبح لأحد، استطالت جذورها في البرية، وتفتحت مواهبها يوما بعد آخر، انتقلت من العسل الأسود والليمون إلى الأفراح ثم المآتم وهات يا عديد.

يـتقدمها، قـرب داره، يتحسس الحجة في سيالته، كمن يبحث عن موطئ روحه، ذعر حين اخطأتها يده، وظن أنها غـير موجـودة، تـرن في أذنه كلمتها.. المصيبة تصغر، والمشكلة تكبر،.. مالك ومال الهم يا حامد، كنت هانئا منعما لا يـنغص عليك شيء، لا، لا تضحك على نفسك يا حامد، نغصت عليك العمر والمدى أشياء كثيرة، لكنها لم تحوق في

فـــردة شنبك، كلها كانت تأتي في بلغتك، ولم تحرك مسمارا واحـــدا في جزمتك القديمة، ابنك الدمرداش حرامي عتيد، لم تمـــنعك ســـيرته من أن تقول للناس لا تسرقوا وإن أصابك بغصـــة، شريط الأسى طويل يا حامد، وطعمه مر، من الفقر إلـــى وفا زيت حار ابن عمك، إلى أبيه عمك الحاج قرد، كل ذلـــك لم يكن ليهز شعرة واحدة من رأسك، لكن موت أخيك كشف ظهرك.

ضـــلفة مـــن الـــباب الكبـــير مفتوحة، والأخرى مغلقة، وعروسة تجلس خلفها، يدها اليسرى فوق جبينها تدفع غلالة شمس، وبالأخرى غربالها، تبحلق في القادم، وأمامها قفتان، أخذتـــه رعشـــة.. يا خبر أسود ومنيل.. القفف ورايا ورايا، وهـــي تكـــبش بـــيدها اليمنى حفنة ذرة صفراء، تحدفها في الغربال، تهزهزه ذات اليمين، وذات الشمال، تنطره لأعلى، فتطلع حبات الطين السوداء على سطحه، وتغيب الذرة تحتها، ترمي النفايات في القفة الشمال وتنتقي حبات الذرة، تدفع بها إلى القفة الأخرى، وبين حين وآخر، تمد يدها، تضع حبة ذرة فـــي شـــدقها، تلوكهـــا، تمتنع عليها، تبصقها، وتحاول وهي

مكشـــرة الجبين أن تفركها، ولا تنجح، ثم بصوت خفيض.. الدرة السنة دي مسوسة وألا إيه؟!.

ـــ يا حامد، يا واد يا حامد، يا واد أنت يا وله.

.. جرى إيه يا أمه، أنت بتنادي على أبو الهول !!

ـــ تعال اقعد هنا قدامي، خللي الفنجرية تشفط لك ودانك وعينيك.

الفنجرية افترشت الأرض سريعا، تربعت بجوار خالتها عروســـة، علـــى عجل، فكت شدتها، ولم تنتظر إشارة منها، أخـــذت تمـــيل رأســـها وتهز كتفيها. تجهز قواتها لتطارحها العديد، حشرت ذيل جلبابها تحت ساقيها عندما لمحت نميرة، أطلقـــت نفـــيرها الأول، بصـــوت مكسور غائب على غير عادتهـــا، ونميرة تقطع المراسم، تقول جملة من هنا، وأخرى من هناك، وبين هدأة العديد وحركة الغربال قالت عروسة:

– بت يا فنجرية .. جوزك .. لسه ..

لـــم تكمل جملتها، انتفضت على حيلها، تجري بالمشوار ناحـــية الحمام .. منك لله، أول مرة أعملها على روحي من زمان.

لم تكن أول مرة، ولا آخر مرة، في ركنها المعتاد، خلف بـــاب الدار، يأخذها الكيف، تشرب الجوزة أو تلعب بالغربال حـــتى يدهمها البول، كأنه فاجأها، كأنها تنسى، وتبدأ فصول المعركة التي تقع في اليوم أربع أو خمس مرات، تفوز أحياناً فـــي ثلاث، وأحياناً تخسر، تقطع المسافة من باب الدار حتى الحمـــام كالرهوان، حتىعندما تلعب دور الكونشينة، في عز الـــدور تنتفض فجأة، ترمي الورق في وجه اللاعبين، ترفع جلبابها ،تأخذ ذيلها في أسنانها، وصوت وحوحتها يسبقها.

الفنجرية تخبئ ضحكتها، وعروسة تعود بسرعة، تفترش حشوتها ثم تميل عليها:

ـ بـــت يـــا فـــنجرية، جوزك الأولاني عايش ولا ميت يا بت؟!.

خلــع طاقيــته، طاقية بحيطة، أخذ يدورها من منتصفها على إصبعه، ثم يطوحها عاليا ويلقفها بالأخرى، يضعها جنب أخوتها على مسمارها المدقوق في الحائط، دائرة بأحد عشر مســمارا وإحدى عشرة طاقية، والعمة تسطع في المنتصف تماما، يمارس طقوسه معها من وقت لآخر، ينفضها، ويزيل عــنها غبار الأيام والحكايا ثم يعيدها، وكل أسبوعين بالتمام والكمال، يضع الطواقي في الطشت الصغير، يدعكها بنفسه، ولا يــتركها لنمــيرة التي تغسل العاطل بالباطل، وقد تبهت عليها ملابسها كما حدث ذات مرة رغم تحذيره الدائم، ولولا عــناية الله التي أنقذتها من يمين الطلاق لكانت في بيت أبيها من أول أسبوع فى الزواج، ونميرة تتهكم وتقول في سرها..

طول عمره راجل نمكي، كان الله في عون ملايكته، عزرائيل لو شافه يطفش.

يغسلها، يزهرها، وينشرها على الحبل، وحين يستعيدها، يكـــون قد جهز الماء الساخن داخل زجاجات، مغلقة بالفلينه، يمـــررها عليها واحدة بعد أخرى، حتى تأخذ شكلها المنشي الذي يليق بمزاجه ومقامه، واحدة من حكاياته التي لا تنتهي، يفعلهـــا بوجه عابس، وروح صاعدة، وهو يلبس جلبابا قديما بـــدون هـــدوم أخرى عليه أو تحته، وأشياؤه تبين من وقت لآخر حسب الوضع الذي يتخذه.

يستلقي على ظهره، وساقه فوق الأخرى.. مالك يا حامد، تطلـــع من نقرة لتقع في دحديرة، كان يكفيك بقية عمرك أن تبحث عن الحسنة، حسنة واحدة تعدل ميزانك وترجح كفتك، مالك أنت وهذه الدوخة، تتسلم الحجة، وتقف وحدك من أجل خاطر برية أفضل واحد فيها سرق مرتين على الأقل.

يعـــتدل، يضـــع ســـيجارته اللف داخل مبسمها، ويومئ للأمام، يهز ظهره جيئة وذهابا، ستضطر حتماً لمواجهة عمك الحـــاج قرد، وابنه وفا زيت حار الذي سيقف لك كاللقمة في

الـزور، والأكلـة سوف تترى على قصعتك، الحقدة، ربيع وغـيره وغـيره، وأنـت بالطبع لن تضمن أبو شبارة تاجر التمويـن، رجـل لا دين له، موالس، لن يقف في صفك فى أحسـن الأحـوال، والله طبلت يا حامد، هؤلاء يحتاجون إلى رجل مثل القطط بسبعة أرواح، لابد أنهم اجتمعوا الآن لتقسيم تركة النادي قبل أن يبرد دمه، وأولها حجة المصنع، برية لا تجـتمع إلا علـى ضلالة، حتى عمك الحاج قرد الذي يحب الفلـوس أكثر من عياله، ويستطيع أن يلهف الكثير من وراء المصـنع، هناك من تف في عبه بأن الغلابة سوف يكسبون كثـيرا مـن ورائـه، ولـن يحـتاج إليه أحد بعد، وعزوته وصـولجانه علـى الخازوق، سوف يضيعان إذا شبع هؤلاء الحـوش وامتلأت محافظهم، رجل نتن يموت فيها لو كانت هناك محفظة أخرى غير محفظته.

هـل تساوي الحسنة أن تعيش مع هؤلاء الغنم، وأن تقع وحـيداً وسـط مـيغة الهمـج، وحوافر الجهل، إلى أي كفة ستميل؟، قلبك وعقلك مع الغلابة، ضد الجهل وضد الحرامية، قلـبك على ناسك رغم غبائهم وقلة حيلتهم، هم لا يحتاجون

لنبـــي، وحـــتى الحرامية لا يحتاجون نبيا، ماذا تفعل وحدك، لو كان إسماعيل مبصراً لوقف معك وسند ظهرك.!!

يحدق في السقف، يشفط السجائر واحدة من ظهر أختها، كأنـــه بين الجنة والنار، لا، ليست هناك جنة، أنت بين النار وصـــهدها، أحـــس مـــن داخله أنه على شفا الاختيار، حتى ولـــو كـــان مرغماً، قضيت نصف عمرك على حس أبيك، والنصف الآخر على كتف أخيك، لا شغلة ولا مشغلة، الشيخ حامد راح، الشيخ حامد جاء، تأكل وحدك وتشرب وتنام دون هـــم أو غـــم.. جـــاءت لك يا حامد، جاءت ثقيلة، ربما هي الحســـنة الباقـــية لك يا ولد، حجتك حسنتك، سوف تخوض المعركة، ستخوضها يا حامد، والأرض التي لم تشأ أن ترها، سوف تطأها، لم يعد يهم، مرغما أو أرضيا، إن حصلت على الحســـنة فبها، وإن لم تحصل عليها فماذا يضيرك، رغم أنك فـــي قـــرارة نفســـك تدرك جيداً أن هؤلاء الناس يحتاجون لإسرافيل كي يصحوا ويحتجوا.

لا يـــا حـــامد، لا لا، الناس هنا غلابة الغلابة في الدنيا، مـــاذا بقي في العمر بعد ستين عاما، لم تفكر في هذا الأمر

من قبل، ولم تكن تعرف ماذا يختبئ لك، كنت تعيشها بالطول والعرض، وعلى كل الأجناب، وعلى بطنك خصوصا، لم يعد هناك مكان لبطنك، جاء وقت الفعل، احمل على ظهرك واحم ظهرك يا حامد، جاء دوره ودورك، سلمها لك يا بطل، ودق لها في المكان الذي سوف تبرك فيه.

استفاق على زهرة السيجارة تلسع ساقه، خبط جبهته ببطن يده بقوة، وبصوت مسموع، والله أنك بهيم يا حامد، لماذا لم تفكر في الاستعانة بالفنجرية التي تكاد تمسك البيوت من زمارة أسرارها، بوابة البوابات، وقناتها تفتح على كل الحقول ، من الحاج قرد إلى ابنه، إلى الحقدة والمطاريد، حتى راغب الحرامي مقطوع اليد، ثم لماذا غاب من ذهنك أنها هي التي كانت تسرب أسرار الجميع للنادي خصوصا أسرار الحاج قرد، وجدتها.. وجدتها يا حامد.

غام وجهه فجأة، فكر أنها يمكن أن تفعل العكس، امرأة لا أصل لها، لكنه على يقين أنها كانت أحد أذرع النادي الطويلة والمتينة، وعاشت على استعداد تام لأن تخون الدنيا ولا تخونه، بين الجملة والأخرى تقول أنه هو الذي عمل لها

عزوة وكرامة في البرية، تنام وفي بطنها بطيخة صيفي على حسه ونفسه، ولحم أكتافها من خيره.

.. كانـــت الفنجرية قد انتهت من لحس عيون عروسه، وانتقلت من أذنها اليمنى إلى اليسرى.

.. معقوله يا فنجرية، معقوله، مفيش ولا دودة يا بت؟!

ـــ الصلاة على النبي، طاهرة مطهرة يا خالة عروسة.

.. ولا واحدة يا بت؟!

ـــ حتى ودنك الشمال باين عليها فاضية.

ـــ .. يكونش حأموت يا بت؟!

ـــ تفي من بقك يا خاله يا أم النادي، العمر الطويل ليك.

شارفت الفنجرية على الانتهاء وعروسة تسترخي، تمدد ساقيها، وهي تتمتم بهدوء.

ـــ اشفطي ودان حامد، والحسي عينيه قبل ما تمشي.

يـــتمدد فـــي غرفة نميرة، عاقدا يديه خلف رأسه، يثبت نظره عند قبة الناموسية المقلوبة لأسفل، يعارك بقدمه عمود الســـرير النحاس، يشعر دائماً بالراحة في سرير نميرة، وفي فرشـــة أمـــه.. أعمدة السرير تكاد تطبق عليك الآن من كل جانب.

يزم شفتيه.. الهم زاد وفاض بعد أن عشت حياتك عمال على بطال، وحدك يا حامد، وحدك، والناس سكارى، تائهون، تمـــر علـــيهم الأيـــام والأشياء مرور الكرام كأنها قدر، وهم مستســـلمون، تبلدت أرواحهم، ونحست جلودهم، كأنك قطعت قلوبهم من عتبة الجامع.

ضحكة الفنجرية تعلو، ترن في قلب الصالة، وتأتي إليه، ثم تنقطع مرة واحدة، كأنها فلتت منها غصبا، ضحكة واحدة غجرية، ضحكة غنجة، جاية من خارج البراري.

كأنـــه لم ير هذه المرأة من قبل، ولا انشغل باله بها أبدا، رغـــم تواجدها الدائم في سكته، لا يعرف لماذا كانت تتحاشاه وتقطـــع الكلام معه، ولا تطول قعدتها في الدار أثناء وجوده وعروسة تسألها ذات مرة:

.. انت بتختشي من حامد يا بت؟!

– باشـــوفه في الدار كأن ستين عفريت أزرق راكبينه، شـــايل عبد القادر على دماغه، ودايما مكشر، كأنه مابيحبش النسوان يا خاله.

.. جتك ستين خيبه، هو اللي عامل نفسه مشغول، وعلى الفاضي، شكله كده في الدار على طول، دا فقي يا بت.

يـــا ديـــن النبي، لابد أن ضحكتها هذه هي التي خرمت نـــافوخ إســـماعيل، شعشـــعت فيه يا حامد، وجابت مناخيره الأرض، اقترب منه بعد هروب هجالته بسنتين أو ثلاثه.

ـــ نفسي أكمل ديني يا شيخ حامد.

.. دينك كامل، زايد وفايض.

ـــ نفسي أتجوز الفنجرية.

.. تعمل بيها إيه، لا هي من توبك ولا أنت من توبها.

ـ أهو، اتعكز عليها بقية الايام

.. ما لقيتش غير دي تتعكز عليها، طول النهار بتبرم في الدنيا على رجل واحدة، أنت بتبرم وهي بتبرم يا سمعه.

ـ أنـــا عايـــزها تقعد ليه، تقضي لي حاجاتي والسلام، ريحـــة نفســـها حلوة، وبصراحه كده، ومن غير مؤاخذه، أنا بحب المره الملهلبة.

.. قـــوم انفـــض من قدامي، جاتك ستين نيلة وأنت زي القـــرع بـــتمد لبره، أنت كبرت يا سمعين، وبعدين لما تتنيل خدلـــك واحده من البلد أحسن لك، مش كفايه المصايب اللي بتيجي من بره، دي مره هجالة، هو انت ناقص.

إســـماعيل انطفأ، ركبه الخرس، وحامد شعر أنه داس على جرحه دون قصد، فكر أن يربت عليه، خاف أن تشتعل المســـألة معـــه ويبكي، بسرعة برم سيجارة، أشعلها، مد يده ووضعها في أصابعه.

ـ هو أنا كنت شفت فرح جوه علشان أشوفه بره ؟

نط من السرير، الفكر يأكله، انتبه على صوت الفنجرية وهـي تسأل أمه عن زواجه من هنية، رمى أذنه ثم اقترب، وبضحكة عالية هازئة ساق فيها الهبل على الشيطنة.

.. آه لو كنتي ترضي بيا، آه.

ـ ما تيجي ألحس لك عينيك.

.. كنـت بافكـر فيكي، لكن أعمل إيه، أنت رفضت من أولها.

ـ يـوه، جـتك إيـه يـا شيخ حامد، تكونشي فاكرني البرنسيسة.

.. ما علينا من البرنسيسة ـ ثم بصوت خفيض لا يتعدى شفايفه ـ باين ما ينفعش معاكي غير شيخ منسر.

انسـحب إلى الداخل، وهو موقن أنها ستحمل الخبر إلى شواشـي البرية، لم يكترث، منذ متى وهو يخاف الناس، أو يعمل حسابا لأحد.. لو كان للصبر طبيب لكنت أنت يا حامد.

شـريط طويـل تلمـع مـنه صـورته ـ في السنة اليتـيمة التـي اشـتغلها فـي الغـيط ـ بعـد مـا أخذوا المـيراث، يسهر الليل عند الساقية يروي الأرض، لا يراقب

البقرة وهي تدور، مثل بقية خلق الله، يمشي وراءها ليلا بطوله أو نهارا بطوله، على بعد ثلاث خطوات منها، لا تزيد ولا تنقص، كأنه معلق بها أو معها، تنفض رأسها لتزيح حشرة تقرصها في عينها، أو أذنها، ينفض رأسه، ويهزها متمايلا بأغنية يؤلفها كيفما اتفق، مغمض العينين، حافي القدمين، وبجلبابه اليتيم إياه.

يفرك عينيه، موضوع هنية على ألسنة الناس، والذين يريدون أن يصطادوا في المياه العكرة أكثر من شعر الرأس، وحتى لو جرى الموضوع في مياهه وكما يريد، لوضع كلام الناس في بلغته، تجاوز صمت نميرة وضيقها المدفون في صدرها، وغمزها أحيانا من بعيد.. حاسه أن فيه زلطة على لبة قلبي يا خاله عروسة.

كتب كتابه على هنية بنت سيدنا التي طلقت الدنيا من أجل أبيها وأختيها، اختارها دونهما، رغم أنهن جميعا عوانس، لأنها كانت على باب العدل، ولم تدخله، اختارها لتقبض المعاش بعد وفاة نميرة، ووفاته، لكن الحكومة يبدو أنها طمعانة في القرشين، تتعلل بأنه كان عليه أن يتزوجها

قــبل وصــوله ســن المعاش بثلاث سنوات والمدة الباقية له لا تزيد على ستة أشهر.

بلــع ريقه الناشف، والله التعامل مع عزرائيل أسهل مائة مرة من التعامل مع الحكومة أو ناس البرية.

فكرة تأخذه، وأخرى تجيبه، سمع صوتا يناديه، تلفت لم يجــد أحــدا، هذا الصوت يعرفه جيدا، كأنه في جوفه، لكنه لا يدرك صاحبه.

ــ خف عني يا جدع أنت.

.. أنت مين ؟

ــ أنت اللي مين ؟

.. أنا حامد بن عروسة

ــ وإيه اللي جابك هنا

.. والله ما نا عارف.

بســرعة نطــر جسده،.. يا داهية دقي، وهاتي آخر ما عــندك، كمال أبو شبارة بشحمه ولحمه، وعليه نفس الهدوم التــي رآه بهــا آخر مرة هناك، ألوانها كالحة، تكاد تنمحي، وســاقه اليسرى ممدودة، بها ألف دمل تقريبا، والقيح يغطي

نصـــفها ويفكـــر بالأخرى، ياه، يعرفه مذ كان صغيرا، يراه وهـــو يركـــب الحمارة خلف والده، ثم وهو يركب الحمارة وحده، وأبوه على أخرى، ولكل منهما خرج ممتلئ عن آخره بالبضـــاعة، الشاي والسكر والزيت، يهبطان إلى قرى البرية البعيدة حتى الغبايشة، والخلق هناك لا تعرف تجارا غيرهما، وعـــندما ودع أبـــوه الدنيا، صار يذهب وحده، اشترى بغلة تحمله بعد أن هبطت عليه السمنة مرة واحدة، تاجر التموين الكبير في القرية أعطاه ثلاثمائة بطاقة، وعندما افتكره ربنا، أخـــذ أبو شباره تموين البرية كلها من الزيت إلى الخل، لبس كاكولـــة أبـــيه، واصبح له صبيان، جلس على الدكة الخشبية أمـــام الدكـــان حتى انكسرت، بنى لنفسه دكة بالطوب، أكل تمويـــن الغلابة واليتامى، يعطيهم النصف، ويستغل حاجتهم وقلـــة إدامهـــم، حتى انتفخت جيوبه مثل محفظة الحاج قرد، وذمـــته صـــارت مـــثل الأستك، واسعة مطاطة، يخلط الماء بالزيت، يخرم باكوات الشاي، والرمل يثقل ميزان السكر.

ـــ خف عني يا شيخ حامد، روحي حتطلع.

.. أنت بتعمل إيه هنا يا با كمال ؟!

وجد نفسه في المكان الذي كان فيه من قبل، أبنية بيضاء على يمينه، وأخرى كالحة عن يساره والدخان يتصاعد منها، نفس الطريق، أشباح صغار تبدو من بعيد، فكر أن يبحث عن جـبال الأكل التي غاص فيها من قبل.. أنت في إيه ولا إيه يا حامد، همك على كرشك على طول.

رأى ثلاثـة أشـداء يـرفعون كمال من الأرض، رقبة كالناف، وكتفان في عرض البربخ، همس لنفسه.. عشان يقدر يشيل الذنوب دي كلها.

انتبه فجأة حين جذبه أحدهم من قبة جلبابه، علقه في يده كالأرنب، رماه على الأرض، وأناخه القرفصاء، حملوا كمال ليركب عليه، رموه على ظهره، تكاد روحه تفلفص منه.

.. خف عني يا با كمال، أبوس رجلك.

أبو عبدو الباغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ـ سـيبني فـي حالي يا حامد، أول مرة أشم نفسي من زمان.

يحاول أن يدفع بذراعيه مؤخرة الرجل حتى يأخذ نفسا، يشعر بها تنتفخ وتستطيل حتى عشرة أمتار تقريبا، وذراعاه تتمددان تحاولان اللحاق بها.

.. يا جماعة نزلوه عني،.. أبوس بلغتك يا با كمال، خف عني شويه، لو رحت الجنة حابل لك ريقك.

ــ حط في بطنك بطيخة صيفي يا حامد، أنت رايح النار رايح.

لم ينزل عنه إلا بعد أن بططه، رمقه طويلا.

ــ أنت فاكر نفسك عاوز حسنة يا حامد ؟، ودايز تشحت من على كل باب، أنت انسرقت منك حسنة يا فالح.

.. كــل شــيء جايــز يا با كمال، ما احنا في زمن كله حرامية، أبا كمال، أبا كمال، أنت ميت من زمان قوي، أنت بتعمل إيه هنا ؟

ــ يــا حــامد، أنا بتحاسب في عود كبريت لحد دلوقت، عود، عود.

.. يــا نهار أبوك أسود، كل ده في عود كبريت، دا أنت على ما توصل الزيت والسكر، عايزلك قيامتين فوق القيامة.

الفأر يلعب في عبه، وكلمة كمال ترن في أذنه.... أنت انسرقت منك حسنة يا حامد، يتنهد بغيظ .. ابن الكلب الحرامي يناديك باسمك مجردا من لقب الشيخ، لولا أنك تحتاجه في الانتخابات وفي موضوع المصنع، لخلعت جزمتك وانهلت على رقبته العريضة الصدئة، تركب عليها أكوام الوسخ، وأبخرة الزيت والجاز.. أنت انسرقت منك حسنة يا حامد.. لكن منذ متى وأنت تصدق أهل البرية، وكمال بالذات، حتى ولو أكل ورق المصحف أمامك، أنت تكاد تصدقه الآن، يخبط رأسه بقبضة يده.. لو صدقت أمة محمد ما صدق هو، الحرامي، آكل حقوق الناس عيني عينك، لكن يفوتك من الكداب صدق كتير يا حامد.

تأكلـــه الحيرة، وجد نفسه كفأر معلق من ذيله، يلعب به الأطفـــال فـــي الحـــارة، يتحسس رأسه، كأن برجا طار من دماغه، يشم رائحة الشياط تطلع من عينه، ومن منافذه، أنت صدقت موضوع الحسنة يا حامد، والآن أنت على شفا اليقين بـــأن أخرى سرقت منك.. يشد الطاقية، يهرش شعره الكثيف الأشـــيب، ويـــنزل بعصـــبية على ذقنه، لم يحلقها منذ وفاة المـــرحوم، طول عمره لا يكترث لعادات الناس وإن جاراهم بلســـانه، هي عادته التي تغيب قليلا، ثم تعود، يواظب على الحلاقـــة فترة، ويتركها فترة أخرى، والفأر يتحرك بسرعة حـــتى اســـتقر، وغـــرز أنيابه في قلبه، عيونه قلقة، وروحه هربـــت مـــنه إلى سابع سماء، والزلعة التي خبأ فيها الحجة أمامه، اختار الزلعة القديمة الكالحة، وخبأها بها موقنا، موقنا بأنها آخر مكان يخطر على بال بشر، وهي صاحبة الرائحة الطيـــبة التي خبأ أبوه فيها جنيهات الذهب التي فك بها زمام أرض البرية.

يمـــد يـــداً مرتعشـــة، يهم أن يتراجع كأن حية بداخلها ستنهشـــه، ثوان كالدهر أو يزيد، يده تنخر ردة الدقيق، تصل

إلـــى قاعها، يا ستار، يحفر القاع حتى يكاد يخرمه، يا ستار، يـــا ســـتار، المقـــدر وقع، ويده طلعت على فاشوش، اختفت الحجة.

اندفـــع هائجـــا عـــبر باب الخزنة إلى الصالة، يستدعي جاعورته، اصطدم بأمه تسرع في طريقها للحمام، وهي ترفع ذيل جلبابها، بدون لباس، لتلحق نفسها قبل أن تضحك عليها الملعونة، وتتسرسب على فخذيها.

.. الحجة انسرقت يا أمه .

بسرعة، وضعت يدها على فمه كقفل صدئ.

ــ اخرس يا دهل، واللي سرقها هات كرشه.

رفعت يدها عن فمه، أخذت طريقها إلى الحمام، والمياه تنســـاب على فخذيها.. منك لله، أول مرة أعملها على نفسي من زمان.

.. ده وقته يا أمه ؟!

أخـــذت طريقها وهو أحنى ظهره ممسكا بخرقة قديمة، يمســـح الأرض التي انشقت فجأة عن ابنه الدمرداش، قبض

علـــى ياقـــه جلبابه، أسقطه على الأرض، برك فوقه، يخنقه حتى كادت عيناه تبظان من محجريهما.

.. جيت في وقتك يا بن الرفضي، عملت عملتك السودة إمتى ؟!

بصعوبة يزيح يديه، ويأخذ نفسه.

ــ عَملـــة إيه ؟، والله ما عملت حاجة، أنت بتاخد على كلام النسوان ؟!

.. فيـــن الحجـــة يـــا صايع ؟، ومين اللي ضحك عليك علشان تفضحنا، ريحتك فايحة يا رمه.

يحاول ان يتملص منه ..

ــ أنت ضيعت الحجة كمان، يا لهوي، وجاي تتهمها فيا، أنـــت مالك ومال الحاجات دي يا با، أنت مش قد الحاج قرد والمنسر بتاعه.

انتزع نفسه من تحته، ينفض جلبابه.

ــ أقسم بالله العظيم ما شفتها ولا خدتها ولا أعرف أنت كنت شايلها فين.

يصدقه بقلبه، يعرف أن الدمرداش حرامي، لكن مداه أن يسرق بطة، أو بيض فراخ، أما أن يسرق الحجة فأمر مستبعد، لكن الأمر لا يسلم، ربما استدرجه أحد زبانية الحاج قرد بوسيلة ما حتى استولى عليها، أو سرقها الدمرداش وباعها له.

نعم هو حرامي صحيح، لكنه حرامي تافه، وليس أخرق لهذه الدرجة، ثم إن ميثاق شرف الحرامية الممتد في العائلة منذ عمه الشابوري الأول يسمح بأشياء صغيرة، ولا يسمح بالكبيرة التي تسقط هيبة العائلة، ولا يتسامح معها.

يبتعد عنه قليلا، الفأر الذي يلعب في عبه استحضر عائلته، ورائحة الشياط تملأ الروح، لكن الحرامية في البرية أنواع، والدمرداش في الآخر حرامي نتن يحتاج فرجا ومحرمة، ولأن الحجة قريبة منه، وعلى طول ذراعه ــ الذي لم يترك جحرا إلا وعبث به ــ لذا شك فيه، من الجائز أن يكون قد طمع فيها.

.. يـــا بني تسرق أبوك ماشي، تسرق خزين الدار كلها ماشـــي، إنما تسرق البرية بحالها يا بني، الغلابة يا بني في عرض الورقة دي.

ـــ أقســـم بالله ما حصل، عايز تصدق صدق، روح دور على اللي أخدها، ولو مش علشانك، على الأقل علشان روح المرحوم اللي تعب فيها.

الدموع تكاد تطفر من عيني الشيخ، والدمرداش لم يحن رأسه، وإن بانت في عينه نظرة أسى وعطف، اندفع يحتضن أباه، وأخذ يقبل يده، منحنيا حتى وصل إلى قدمه.

.. ســـرقة الحجة عار علينا يا ولدي، والعار أطول من العمر.

انسحب الدمرداش إلى خارج الدار، والشيخ يركن ظهره لظهـــر نميرة، هم أن يوقظها، تراجع، اللي فيها يكفيها، غاب دقـــائق يتقلـــب على جنبيه، ويقلب الأمر على الجمر، وجده أمامه بهيئته التي رآه بها آخر مرة.

.. عايز إيه المرة دي كمان ؟، هو أنت لابد لي في الدره يا بني ؟!

ـ وقتك قرب يا شيخ حامد.

.. قرب ولا غرب، يعني أنا اللي حأعد لها يا خي، أنت مش شايف الحوسة اللي أنا فيها ؟ ـ يبلع ريقه ـ بقولك إيه يا عبد الرحمن يا خويا ، أبوس رجلك، ما تعرفش مين اللي خد الحجه.

ـ وقتك قرب، أنا ماشي ومش مغيب المرة دي يا شيخ حامد.

لـم يخـتف فجأة كعادته، أعطاه ظهره، مشي على مهله ناحية باب الدار، وقبل أن يغيب عن نظره اندفع وراءه.

.. اوعـى تكـون فاكر أني خايف منك، الكفن واضب، الصلاة واضبه، ونميرة في النازعات، والحجة طارت، تعال وقت ما أنت عايز يا خويا.

لـــم يخـــرج الحاج قرد إلى البلكونه كعادته كل صباح، والذين اعتادوا أن يروه في نفس الميعاد لم ينشغلوا، ولا فات علـــى بـــالهم، لم تكحل له عين حتى الصباح، وأجنابه ترقع بالصـــوت الحيانـــي من فرط ما تقلب، بات يتمرغ على الهم والقلـــق، يعصر دماغه محاولا أن يدفع عن خياله الفضيحة التي ستجلب له العار حتما، وتجعله يلبس الطرحة على آخر أيامـــه، وهـــو مـــن هـــو، الحاج قرد، الذي أكلها والعة من مجاميعه بعد وفاة أخيه أبو عبده، وغمس بباقي أرض العائلة، كالنار التي تأكل ولا تشبع، لا من شاف ولا من دري.

يخـــرج فجـــأة من غرفته التي لم يستطع أحد أن يقرب بابهـــا، وعـــيونه تكاد تقئ من محاجرها، تتقد شررا، تلبست

وجهـــه خيبة تراجعت سريعا، وحاول قدر إمكانه أن يمسك نفسه حتى لا يقع من طوله.

كرســيه شاغر منذ الصباح، وحافة البلكونه لم تنعم منذ أول أمس بانتصاب كوعه الذي يرميه عليها طيلة الوقت، لم يجــرؤ أحــد أن يدعوه للإفطار، ورفعت ابنته صينية الأكل حيــن رمقها بطرف عينه، وابنه العزيز، القاعد على حجره وفا زيت حار ابتلع لسانه أمامه لأول مرة في حياته.

ــ عملــتها فيا يا وفا، على آخر العمر تمرمغ دقني في التراب يا نجس.

.. كنــت عاوز أحوش العين عنك، وحياتك قبل صفار الشمس لتكون هنا.

يجر قدمين ميتتين، يسبقه وجهه الذي أسود، كأنك اخذت تــراب الفرن ولطخت وجهه قبل أن يطلع على الناس، رمى نفسه على كرسيه، يعصر كفيه ويهمهم.. الموت ولا العار.

الرجل الذي نفذ بجلده من الروماتويد، نفذ وحده في برية بكاملهــا، ضحك على الموت وزاغ منه، جاءت له تحت بزه ســاخنة كســيخ صدئ محمي بالنار والعار، الحرامي العتيد

الــذي لم يعرف أحد في البرين أنه حرامي، تسرق محفظته، وهــو الــذي سرق بهائم ومحافظ من كانت لهم محافظ، ولم يعــرف الــدود الأزرق له طريق جرة، والداهية السوداء أن تسرق محفظته في داخل داره ومن تحت إبطه.

يقــول الحرامية إنه يعرف المكان الذي يدلل فيه الذئب ابــنه، علمه المرض الحذر، وعلمته النجاة أن يحتاط، علمه المــرض ألا يكترث لمصائب أحد، وقسا حتى صار الحجر ألين من قلبه، علمته السرقة أن يضع عينيه وسط دماغه، وألا يــترك ظهــره مكشــوفا.. ثلث عمره في المرض، والثاني للســرقة، والثالث كبيرا للعائلة والبرية، لم يعرف فأر الشق عــنه أنه كان حراميا عتيدا، فقط المكاوية وسلالتها هم الذين يعرفون، ولم يجرؤ أحد أن يفشي سر الباش حرامي يوما ما، ومــن تسول له نفسه أن يتفوه بكلمة واحدة، عليه أن يتشهد على روحه، وأن يجهز كفنه من سكات، هذا إذا لم يدفن من غير كفن، ومن دون شهادة.

اســتولى علــى سر المكاوية وحركتهم، هو الذي يشير بالمسروق والسريقة، مكان الخبيئة، والفدية، وتقسيم الغنائم،

ونصيبه يصله في المكان والموعد المتفق عليه، لم يدخل أحد منهم داره بتاتا، ولا عرف مرساله، كوى البراري كلها بالسرقة، ولم يلطشه الحجر الداير يوما.

عاش خافيا متخفيا، قطع العهود على نفسه، وكان هو الموقع والشاهد الوحيد.

شيخ المنسر الحقيقي، سرقت محفظته، وقع في الخية ولم يسم عليه أحد.

في الليلة السابقة أخذ بنصيحة المشئوم ابنه وفا، رغما عن أنفه، ولأول مرة في حياته، ولآخر مرة، دعا أتباعه على العشاء، فعلها، وكأن احدا يسحب الغطاء من عليه في ليلة قارسة.

وفا يريد أن يحتفل بوقوع الحجة في يدهم، يريد أن يخرج لسانه للجميع، ومع أن الموضوع يستوجب الكتمان، إلا أنه يتعمد أن يشير من طرف خفي أن يده طويلة، ولا أحد يستطيع أن يقف قدامه، وهو الكبير القادم بعد عمر طويل أو قصير لأبيه.

يعنـــيه عمـــر أبيه فيما مضى، يجمع له الأرض، ويكنز الفلـــوس، بعد أن استتب الأمر، وآلت أرض العائلة والعائلة كلهـــا تقريـــبا لهم، الوحيد الذي فلت من تحت جناحه النادي واخوتـــه، ووفا بقلبه الأسود مثل قرن الخروب، لم يعد يرى شـــيئا ســـوى نفسه، وقد اعتلى الكرسي ناصبا ذراعيه على حافة الشكمة مكان أبيه.

وفـــا يـــريد أن يحتفل، والحاج قرد يريد أن يكفي على الخبر ماجورا، رجل قراري غويط، علمته الأيام والليالي أن يبقـــي مســـافة بينه وبين ما يفعله، أو من يعمل معهم أسفل الطاولـــة، لكـــن زهوة الدنيا التي حطت عليه، أخذته لحظة بنشوتها، هذه اللحظة التي اقتنصها وفا، وراح يزن على أذنه صـــباح مساء، جعلته يقبل، وإن تحفظ على مسألة العشاء في الـــبداية، وعـــندما قـــبل تجاوزها إلى التدقيق في الأصناف، عددها وحجمها.

وجـــد وفـــا فـــي موضـــوع الانتخابات غطاء للعشاء، وضرورة أن تنجح قائمة الحاج قرد الذي لم يكن موافقا على

موضـــوع الانـــتخابات من أصله، لكن وفا أقنعه بأن الزمن تغير، وأن عليه أن يغير نظرته.

وافق.. وافق الرجل الذي عاش على الفتات، كانون داره لا يخرج دخنة بالأسابيع، لا يصرف سحتوتا في الأسبوع إلا بطلـــوع الـــروح، العـــدس زاده وزواده كل يوم، واللبن في الصـــباح والمساء لمن أراد، والطعام لا يتغير إلا في الأعياد والمواســـم، وبقدر، دكر بط واحد يتيم للعائلة، يقسم ويوزع نسيلة بنسيلة، والشيخ حامد يعابثه حين يلقاه صدفة في طريق الجامع :

.. علي النعمة من نعمة ربي يا با حامد، أنت أحسن من جمال عبد الناصر.

ـــ أنت بتتريق علي يا بن خويا ؟!

.. عـــبد الناصـــر هو اللي بدع الاشتراكية، وأنت اللي طبقتها، والله لو عرف يمسك البلد زي أنت ما مسكت العيلة لحل كل مشاكله، لكنه ساب كلابها على ديابها.

ـــ مين ديابها يا حامد ؟!

تحدثـوا كالمحترفيـن عـن الانـتخابات، ثـم هبطوا كالمحروميـن على الطعام، والحاج قرد يهرش مقدمة رأسه، وقـد أزاح للخلف لبدة من الصوف الخشن، يجزعلى ما تبقى مـن أسنانه.. طول عمرهم محرومين، وحيموتوا محرومين، حـتى لـو كلوا مال النبي، يهش لهم من تحت ضرسه، وهم يردون التحية بأفخم منها.

مشغولون بالفتة، غاصوا حتى أكمامهم،...

يتفحصـهم، وعينه تكتم سره ونيته، من أبوشباره تاجر التموين، إلى ربيع المتخصص في شكاوى خلق الله، وإن لم يجد أحدا يشكوه شكا ذباب وجهه، وراغب النتن حرامي البط والوز.. حتى راغب ترشح في الانتخابات وعلى آخر الزمن يدخـل دارك، وهـو الذي إذا رآك في شارع، قال يا أرض ابلعينـي، واختـبأ في أيه شونة تصادفه، ثم المكاوي الكبير، حبيـبه، زعـيم الحرامية الرسمي، صاحب المكمد، وناظر مدرسة تخريج اللصوص، هو الذي تكمن عنده أسرار سرقة الـبهائم فـي الـبرية بحالها، والذي لبسته الدهشة حين رأى هؤلاء في بيتك، وإن لم يفصح.

هــؤلاء وغيرهم أصبحوا أمامه مرة واحدة، يتعامل مع كل واحد بقدر، يهش للمكاوي ويقدره، لكنه يبقي على مسافة بيــنهما حفظــا لهيبته، ويتعامل مع أبو شبارة بطريقة السلام علــيكم، علــيكم السلام، من بعيد لبعيد، حرامي طفس، يبقيه على حافة الطلب، وإن لم يوغل في المعرفة، وربيع، يخاف منه ربيع خوف العمى، لو أطلق عليه أحد كلابه لنهشه، لكنه يستأنسه، ويسايسه، اتقاء نزوة يشكوه فيها، والمسألة لا تحتاج وجع دماغ، أما راغب فهو كلب ولا يسوى، فردة بلغة قديمه، لكنك تحتاج إلى فردة البلغة أحيانا.

يــبلع ريقه، كلهم شربوا من مسقاة واحدة، وحتى عندما تزوجوا اختاروا نساء من بعضهم، عرّف الحرامية، والقانون غــير المكتوب للسرقة، وقرد يبلع ضحكة، ويقول في سره : لو كان قانون الناس زي قانون الحرامية، وراغب يمصمص العظم بصوت عال ويقول له :

ــ علــى النعمة، لو جبريل نزل قصادك في الانتخابات، أنت اللي هتنجح.

ذراعـــه علـــى حافة البلكونه، والشمس استوت في كبد الجـــو، دماغه تغلي من داخلها وخارجها، تلف كساقية ناشفة يتـــيمة في شهر بؤونة، يأخذه شريط طويل، كل صباح بعد الإفطـــار مباشرة، يطرقع محابس محفظته المنفوخة، يخرج نقـــوده، يلتفت حوله خشيه أن تراه الملائكة، يعدها على أقل من مهله، يعيد العملية من الأول، مرة ومرات، يشم رائحتها ثم يعيدها إلى مقبرتها.

الـــرجل الـــذي تهابه أمة محمد، يكاد مقعده يغوص به، يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته، الرجل الذي قسا على نفسه وعلى الدنيا، سرقته السكينة، واكتشف في سرقة محفظته أنها ستلف وتدور عليه.

عاش عمره على الفتات منذ استولى على محفظة العائلة ومقعـــد الكبـــير، لا يصرف مليما أحمر إلا بالطبل البلدي، وكلمـــا احتكم على مائة جنيه يشتري فدانا، لم تعوزه الحيلة ولا القـــوة، عـــامل العائلـــة كالعبيد، اشترى نصف أرضها، والفـــدان الغالي يشيل الرخيص، قسم الأرض صوريا، يقيس بالمحـــراث، والفـــائض يدخل عبه، والذي تسول له نفسه أن

يـــتمرد، ويريد أن تكون له بطاقة حيازة باسمه في الجمعية الزراعـــية، يعطيه الخابور المتين، يكتب له الأرض المحملة بديون مصلحة الأملاك وعوائدها، التهم أرض البنات، ورث أرض أخـــيه المســـجون والأرض التـــي آلت لزوجة أخيه المتوفـــي، لـــم يســـتطع أن يقرب أرض أبو عبده، خوفا من النادي، وإن ظلت عينه عليها، الجاموسة أغلى عنده من ابنه، وعـــندما ضغط عليه ابنه زيت حار لبناء مدفن للعائلة تبرع بنصف فدان من نصيب أخته الكبيرة.

أكســـبته قسوته على نفسه وعلى الآخرين المال، والمال أعطـــاه الســـطوة، والسطوة جعلت منه كبيراً للبرية، كبيراً ناقصـــاً لوجـــود الـــنادي الذي استولى على قلوب الغلابة، فاســـتعاض عـــنها بمنصب شيخ المنسر، وإن توارى خلف حذره، وإن ظل خلف الشباك.

السرقة أعطته من أوسع أبوابها، وظل كشاروقة الفرن، تسحق كل ما يدخل جوفها، ولم يكن ليمنعه أحد، إذ أن قانون الجشـــع انضم إلى قوانين السرقة، وكان أمرا مقضيا، ساعده فـــي ذلك ما درج الناس عليه في البرية منذ وطأوها، فتحوا

أبــواب السرقة من جانب، وانفتحت عليهم طاقة الجشع من جانب آخر.

كــتم علــى نفس العائلة، وان لم ينس دوره ككبير لها، يزوج الأولاد والبنات على كيفه، ويأخذ من نصيب كل واحد نصف فدان.. كسوة للصيف، وأخرى للشتاء، يشتري القماش بنفســه مــن السوق، توب واحد، بلون واحد، والعائلة تبدو مزهزهة معروفة للآخرين حين يخرج الجميع لصلاة الجمعة، جلاليبهم متشابهة صيفا وشتاء، يتباعدون عن بعضهم بعضا كــيلا يصبحوا أضحوكة تحت لسان الآخرين، والشيخ حامد يعابثه كعادته حين يراه :

.. غير ألوان الهدوم، أحسن يتوهوا في الحمير.

ــ مــا لكــش دعوة يا حامد، عامل كده علشان الملايكة تعــرفهم بســهولة وتريحنــي مــنهم، داهية فيهم وفي اللي مخلفينهم.

ينهض متثاقلا، خائر الروح، يشيل الهم على قرنه، يعبر الصالة في اتجاه غرفته، وزيت حار يقترب منه على حذر.

ــ هيه الحجة كانت في المحفظة يا با ؟

....

ـ هـــي الحجـــة كانت في المحفظة يا با، جرى ايه ؟، ما ترد عليه.

.. أمـــال، أنت فاكر إيه يا ننتن، جبت لي الوكسة والعار يا مشئوم، ارتحت يا نجس.

ـ وحـــياة راسك، لترْجع قبل نزول الليل، واللي خدها، لا له تار ولا عزاء.

يدنو من باب الدار، بوجه متوتر، قسمات مشدودة وجبين ملتو، فكر كثيرا ألا يخرج، بطنه عافت الأكل، ونميرة وجدت الحلل كما هي، لم يقربها، ولم يخبئها تحت السرير كعادته.. مالك، شايل عبد القادر على راسك ليه؟، أنت بعافية ولا إيه يا خويا ؟!

يـــروح ويجـــيء، حين تركبه الغمة، يهرول في الصالة عاقدا يديه خلف ظهره، منحنيا للأمام، يدندن كلمات متقطعة بصـــوت يعلـــو ويخفت بانتظام،.. متى يأتي الطوفان؟ متى يأتـــي، ليأخذ في سكته الحقدة والحرامية، ألم يئن الأوان ؟، إيه.. أنت تعرف أكثر من غيرك يا حامد أن هذه البقعة على حالها هذا منذ خلقها الله، بقعة موبوءة، لكن الأمور زادت عن حدهـــا، ومـــياه المجـــاري غطت مياه الترعة، وكبست على

أنفاسها، المجرور يطفح طالبا نزحه، لا.. لا، المجرور يطفح ولا يطلب، ولا أحد يقوى على نزحه يا حامد، بين كل حرامي وحرامي واحد آخر يفكر، وواحد يدس يده.

ليست هذه وحدها المشكلة، المصيبة السوداء أنهم يحشرون أنوفهم في مصير الغلابة والمقاطيع، ويغسلون أيديهم في جيوب وجباه الطيبين، المصيبة أن السرقة أصبحت هي الناموس، والأدهى والأمر أن أصبح لها سطوة وجذور وأفرع حادة مسنونة.

حك أنفه بعنف.. الغلابة يستحقون ما يجري لهم وأكثر، إلى متى يظلون خانعين بلا أنياب، لا.. لا، لا تثقل عليهم يا حامد، لا تضع القربة المثقوبة على ظهورهم، ولا تعلق الجرس في رقابهم، أنت بجلالة قدرك ابن أبو عبده، أخو النادي الغول، شيخ جامع بجلالة قدرك، لا تستطيع أن تفلفص إلا بصعوبة شديدة.

مازال يهرول في الصالة، ركبه الموت، لمح ابنته سناء تعبر باب جدتها، أخذته رعشة سريعة، والغصة قفزت إلى حلقه.. حتى سناء لم تستطع أن تفلت بها، حشرك وفا بن

عمـــك في الركن، وظهرك للحائط،.. الرمة بن الرمة،.. هذا ما تقدر عليه فقط يا حامد، تشتم من بعيد لبعيد.

كـــان وفا قد طلب يد سناء لابنه، آملا أن يطوي الشيخ تحـــت جـــناحه بالمصاهرة، بعدما عجز أن يطوعه بالعافية، قـــرر أن يقفز إلى عبه بالتحايل، ليستولي على ما تبقى منه، ومن أرض العائلة.

ـــ عايزين البنت لابن عمها يا شيخ حامد.

بلهجـــة قاطعة.. حل عني يا زيت حار، ما تبقاش فايق ورايق.

ـــ البنت لابن عمها، وزيتنا في دقيقنا.

.. هـــو أنـــت خليت فيها زيت، البنت مخطوبة يا وفا، وأقســـم بـــالله لـــو ابنك آخر واحد في الدنيا عمره ما يلمس طـــرفها، وحـــتى لو البنت بارت، وآخر مرة أسمعك تجيب السيرة دي.

جابهـــا من قصيرها، تعمد أن يكون قاسيا ولاذعا حتى يقطـــع علـــيه الطريق، ولا يترك له منفذا، ذبح القطة أمامه وبحـــدة، متمنيا أن يقطع ذيل الحية يوما ما، يدرك بما خبره

أن مجـــرد تـــرددە، أو مراوحته في هذا الموضوع ستشعل جذوة الطمع عند وفا، وأن موافقته تعني نهايته، بالضبط ليس إلا نهايته.. لن يسلم ذقنه لهذا الثعبان، حتى لو بارت البنت.

يعـــرف أكـــثر من غيره، أن وفا هو اليد التي تعبث من خلـــف ظهـــر أبـــيه، مع أن الحاج قرد آخر من يحتاج لمن ينصـــحه أو يحضـــه على التهام العائلة، ويكفي من الدست مغـــرفة، لكن وفا أخذ بالأسباب، وجاءت له على الطبطاب، بخـــت ومقدر، تفنن في غش العائلة، عيني عينك، في الظهر الأحمـــر، يقيد إيراد الأرض بالزور، والذي له ثلاث كيلات يعطـــيه اثنتين، غيته ومرامه أن يزن كل صباح على خراب عـــش الآخرين، يشير بأرض فلان، وأرض فلانه، هو الذي يـــتعامل مع الجمعية الزراعية، يقسم المال المستحق والعوائد علـــى بطاقـــات العائلـــة، ويـــترك بطاقـــة حيازته المنتفخة ـــ وأخوته ـــ نظيفة خالية.

ولأنه حاقد دنيء كما يقول الشيخ حامد، سمسر من خلف ظهـــر أبيه، الذي لم يثق بأحد غيره حتى لا يعرف أحد من خارج البيت أسرارهم.

كان وفا صادقا وفيا لنواياه، إذ استخدم نبابيت العائلة في تأديب أعدائه، ومن يرى بعينه المعطوبة أنهم سيكونون شوكة في طريقه يوما ما، افتعل الخصومات وأثار النعرات العائلية، يشعل النار وحده، ويقف بعيدا يتفرج عليها ــ وحده أيضاً.

حجر المشئوم على مستقبل البنت، وأوقف عدلها، والذين كانــت عندهم النية لخطبتها، ابتلعوا نواياهم وابتعدوا، كسر المشئوم رجل كل من تقدم لها، وهي تعدو أمام الشيخ بجناح واحد، تهذر معه سريعا، تكسر صمته مرة، وتتركه في حاله بقية الأوقات، تعرف أنها تدفع ثمنا باهظا لأشياء لم تفكر بها يوما.

ــ مش حتيجي يا با أصب عليك تتوضى ؟!

كأنــه لم يسمعها، استضعفه وفا بعد وفاة النادي، وأغار عليه ليأخذ البنت أولا، وتكر السبحة، وصوت أمه يقطع أنينه المكتوم :

ــ يا حامد، يا حامد.

.. يا أمه إنت دايما مستعجلة، دايما مستعجلة.

ـ طـول عمرك دهل، همك على كرشك وبس، أجيبك منين يا نادي، اسمعني يا حامد، وحط كلامي حلقة في ودنك.

تـأخذ نفسـها، تعـد علـى سبحتها، وبصوتها المتقطع المتناغم:

ـ أش كـرك يـا ربي، أش كرك يا ربي، أش.. اكتب كتاب سناء على ابن النادي أخوك.

.. يامـه، دا أصـغر منها قوي، ولسه ما بلغش، دي لو اتجوزت من زمان كانت خلفته.

ـ أصـغر، أصغر، بس راجل من ضهر راجل، ويكره يكـبر ويبلغ، علشان تعرف تقف قصاد الحاج قرد وعياله.. أش كـرك يـا ربي، وما حدش يقول أن البنت بارت، واحنا مش قادرين عليهم.

.. يامه بس !!

ـ ما بسش، أنت عارف الحاج قرد واقف قصادك ليه ؟

.. علشـان ربنا خلقه شمال، بيئة واطيه، جشع ونتانة، وكرشه أوسع من جهنم.

ـ لا يـا فـالح، علشـان كان عاوز يتجوزني بعد وفاة المرحوم أبوك.

.. يا خبر أبوه طين، الأملاك مش بس في الأطيان.

ـ أشـكرك يا ربي، أشكرك يا ربي، عليك وعلى كمال الحرامـي بـتاع التموين، بيع له الفدان، زي النادي ما قال، ولـو بـنص تمنه، كمال بطنه واسعة، وحيطير من الفرحة لو المصنع بقى في أرضه، وهو اللي حيدور على الحجة.

.. يعني أعمل زيهم يامه، أبيع لحرامي مقطوع اليد.

ـ اللي تغلب به إلعب به، أش كرك.

عبر باب الدار، مد يده في جيب سيالته، أخرج سيجارة فرطا، أشعلها، بطرف عينيه لمح الدمرداش يمشي خلفه على مقربة، منذ سرقت الحجة، وهو لا يفارقه، وإن لم يظهر في الصـورة تماما، يراقبه من بعيد حتى يدخل الجامع، أو يعود إلى الدار.

ينفـث دخانـه عاليا، يشعر أن الزمن صفعه بقوة، أخذه علـى مشمه، ونصب له الخازوق المغري على آخر أيامه، طـول عمـره وهو يبتعد عن الحاج قرد ـ رجل كداب في

أصـــل وشه ــ لم يضعه يوما في حسابه، ولا انشغل به، ولا بغـــيره، وقـــرد كـــان يبوس جزمة أبيه، ويطلب له الرضى ليرضـــى.. فحـــل جاموس من أجل نجاح حامد في الأزهر، فحـــل جـــاموس وهو الذي يموت على النملة، وبعد وفاة أبو عـــبده تمسح في النادي الذي تكفل به على أحسن وجه، أخذه بالسياســـة، مـــرة ضده، ومرة تحت باطه.. ناس تخاف، ولا تختشي.

بعد موت أبيه، قعدوا سنة تحت ركبة الحاج قرد إلى أن اقتســـموا الأرض، وأخذوا نصيبهم، سنة شافوا فيها اللضى، ذاقوا الأمرين، وأكلوا الكشكار كالحمير مع الحِلبة، كان عام الـــرمادة، وســـنة الحسم على رأي السيد الرئيس، انتزع لهم الـــنادي أرضـــهم وبهائمهم وما تبقى للعائلة تربع في كرش الحاج قرد الذي سلمهم حقهم على نن عينه، رغم أنه لم يترك لغيرهم شاردة ولا واردة، ولا طيرا يعبر السماء.

رجـــل عليه بال يفقع المرارة، والطريق طويلة، وراغب في الناحية الأخرى من الترعة يجر شكله ويصيح :

ـ حـتدخل معانـا في قايمة الانتخابات بتاعتنا يا شيخ حامد.

.. بيـت النـتاش ما يعلاش، معاك أنت يا رمة يا لمامة البشر.

يقطع الوسعاية أمام دار الحاج قرد الذي ناداه، وهبط من شكمته على غير عادته.

ـ تدخل معانا القايمة يا شيخ حامد .

وهـو يضـحك.. حـد الله ما بيني وبينكم، بأقولك إيه، ما تسيبك من الانتخابات ووجع الدماغ ده وتروح تحج السنة دي، وأهو ترتاح من خلقة راغب، واللي شبهه.

ـ أحج وأنا في السن دي يا بن أخويا.

.. على الأقل، تمسح شويه الذنوب الصغيرة اللي عندك.

ـ أخاف أموت هناك يا بن أخويا، وما حدش يعرفني.

.. بعد الشر عليك يا با، وإيه يعني، على الأقل تتدفن في الأرض اللي فيها سيدنا النبي.

ـ سيدنا النبي، مش هي برضه الأرض اللي مدفون فيها أبو جهل يا حامد.

قالت حفيدته، أنها لما طلعت في الليل إلى الحمام وحدها، كانت خائفه، بعد ما حاولت عبثا إيقاظ عمتها سناء.

كانـت خائفـة، لكن خوفها من جدها ــ لو عملتها في السرير ــ كان أكبر.

قالت انها لما خرجت، وهي تفرك عينيها، شاهدت غرفة جدتهـا عروسـة وبابهـا مفتوح، وضي شمعه طويلة داير مـايدور حـول سريرها من الأربع نواحي، الشمعة تدور، والضي يدور، ويتوقف عند رأسها، يرقص ويشعلل.

ولمـا اقتربـت من الباب، وكانت مازالت خائفة، نادت جدتها بصوت مرتعش، انسحبت الشمعة باتجاه شباك الغرفة الـذي يفتح على الشارع، ثم انطفأت، نادتها بعزم ما بها من خوف، لكن جدتها كانت تغط في نوم عميق.

قالت عروسة، أنها سوف تذهب بعد أربعين يوما، وأنها ركبت ليلة أمس مهرة مشت بها في طريق طويل، شافت أبو شـــبارة، ونـــاس كثير من البرية، عندما صحت لم تتذكرهم، لكن هناك من أشار للمهرة بإصبعه الطويل، فعادت بها مرة ثانية إلى السرير.

ـــ والشمعة يا جدتي

* شمعة اللي بيطمنوا عليّا يا بنتي

رفعتها بجانبها، ربتت عليها، وقبلتها.

* ابـــوك بيســـلم علـــيك يا حامد، وبيقولك يمكن تنفع، وأخوك بيقولك شد حيلك، هانت.

شاهد الشيخ حواف اللحاف، وبه آثار شمع أبيض.

قالـــت نمـــيرة وهـــي تنش الذباب عنه، وهو جالس إلى الطبلية يأكل وحده.

ـــ شـــمع إيـــه، وبتاع إيه، أمك من يوم المرحوم وهي بتقول حاجات غريبة.

.. أبـــدا، كل الفنجرية ما تشفط لها ودانها، تعمل واحدة مـــن دول، ولا تلاقـــيها عملتها على نفسها، وملحقتش تروح الحمام.

وقع ما لم يكن في حسبانك، ولا خطر على بالك، جاء اليوم الذي تبيع فيه فدانا من أرضك وأرض أبيك لواحد أنت تعرف يقينا أن فلوسه حرام في حرام، ومستعد أن تحلف على الختمة.

يـدس يـده اليسرى خلف رأسه، يرفع طاقيته قليلا من الخلـف، بسرعة يهرش الشعر النائم تحتها، ليته كان بيعاً يا حامد، إنه تنازل في أحسن الأحوال، وبتراب الفلوس، سرقة فـي عز النهار، سطا كمال على الفدان بمنافعه، الفدان الذي يخـرج ثلاثـة بطـون في السنة، ولم يكتف بذلك، بل شمط اللحف الذي يفصل بينه وبين باقي الأرض، ولأن أمه جابته مـن شونة، عاد وتملعن، ولهف نصف فدان آخر، وأعطاك بـدلا منه عشرة قراريط في السبخاية البعيدة التي لا تطرح

غـير السنط والخريزة، لكن الأمر يهون يا حامد، طالما أن المصنع سيقام.

يـدور حول التوته، شجرته وشجرة أخيه المنتصبة في جـرن الأرض، براد الشاي معلق من أذنه بخرقة قديمة، في مكانه المعتاد على الفرع الواطئ، والشاي والسكر في سيالته، لقـف البراد، لمحه من بعيد، يخوض في قلب الأرض رافعا ذيله.. أنت عرفت الغيط كمان، ربط ذيل جلبابه حول وسطه، لـم يكـترث، ولا رفع عينه مرة أخرى، ملأ البراد ووضعه فـوق راكية النار، ما الفرق أن تكون نهايته في الدار أو في الغـيط، لم يعد يهمك شيء، تتمنى قبل أن تموت أن تطمئن على سناء ونميرة، وعلى هنية بالمرة بعد أن عشمتها بالحلق، ومنى عينك أن يقام المصنع حتى يطمئن المرحوم في نومته، وحيـن تقابله، وحتى ترتاح أنت من الزلطة التي بركت على صدرك.

المصيبة السوداء، أنه من رابع المستحيلات أن تستخرج ترخيصـاً آخر، أو نسخة من القديم، دون أن يشم أحد خبراً، وسـيتكالب علـيك الصيع، ووجهاء القرى الأخرى، وأعيان

المركز.. قاعدين لك على الواحدة، ومات الذي كان سينتزع الحجة من عين العنتيل.. وموت يا حمار لحد ما تجيب غيرها.

لا.. لا، أنت لست الله يا حامد، لماذا تتعب نفسك في الحجة، والمصنع، وتتنازل عن الفدان لخلق أنت تعرف أنهم لن يحرقوا مكانهم مهما فعلت لهم، ناس أخذوا على السرقة والشحاتة في أحسن الأحوال، كار، كار يا حامد، كار نائم تحت الجلد.. لا، لا.. ارجع يا حامد، ارجع وابعد عن الشيطان، أنت عزمت وتوكلت وحزمت أمرك، سر في الطريق لنهايته، كتب عليك يا حامد، أنت الموعود، وأمرك لله.

قلبه يأكله، غير مطمئن، لم يستطع تجاهل الأمر أكثر من ذلك، سيأتي سيأتي، تطلع، بنصف عين إلى القادم، مازال بعيدا وربما ابتعد أكثر، كأنه يمشي للخلف، هرش شعره المتجعد تحت الطاقية أم حيطة، كان عليه أن يقدم للحكومة تنازل كمال عن الفدان، وأن يعيد تسجيل الأوراق من أول

وجديـــد، وبسرعة، اشترط عليه كمال مشددا ألا يعرف أحد بالموضوع إلا بعد التسجيل، وختم الحكومة.

قالـــت له هنـــية حيـــن رأته يتسحب ويخرج في طلعة الشمس.

ـــ آجي معاك يا شيخ حامد.

.. المـــرة الجايـــة، المـــرة الجاية يا هنية ـــ ثم بصوت خفيض ـــ جت لك سخنة تحت بطنك.

يسابق قدميه، تلاحقه ضحكة عطشانة، ليخرج من البرية قبل أن يراه أحد، ماذا سيقول لهنية وأي وجه سيقابلها به بعد ذلـــك، بعدما علم أن الحكومة ترفض أن تعطيها المعاش أو جـــزءًا منه، إلا لو كان قد تزوجها قبل الخروج على المعاش بثلاث سنوات، الكسوف سيأكل وجهه أمامها، هل تفهم هنية الموضـــوع لـــو شـــرحه لها، لا، لا يا حامد، هنية لا يعنيها المعاش ولا غيره، يعنيها أن تتزوج الشيخ حامد، أن تتزوج وخـــلاص، لعلهـــا تعتقد أن تحت القبة شيخاً، ونميرة وافقت علـــى كتب الكتاب فقط ،وعلى مضض، بصابيص نار في صـــدرها، تعصـــر على نفسها غلق ليمون وتقنع نفسها أمام

الآخريــن ــ إن عرفوا ــ بحجة المعاش، الآن لم يعد هناك حجة له، ولا لهنية.

فــي المصــلحة، وجــد طابورا طويلا، أخذ كوب شاي وأشعل سيجارته بعيدا عند السور، إلى أن يخف المولد، على مقــربة لمح الرجل الذي دعاه لخطبة الجمعة والعزومة إياها في الغبايشة، حاول أن يخبئ وجهه، ويزوغ منه، لكن الرجل انــتفض، ســقط علــيه كالقضــا المستعجل، وتعلق في قبة كاكولتهيا شيخ حامد، يا شيخ حامد، جيت لك لحد باب دارك، وعزمتك، كنت عاوزك في مسألة مهمة، تسيبني وتمشي.

.. يعني عزمتني على المفسَّخ يا خي، أنت فاكر ما فيش على الحجر غيرك، قول، كنت عاوزتي في إيه يا بن خالي.

لــم يكمــل جملته، إلا وعيون الرجل تسح على الآخر، تفرس في وجهه، سحنته كأنها سحنة عزرائيل، قرر أن يدخل في الموضوع بسرعة.

.. وأنــت بتعمل أيه هنا يا بن والدي، ضاعت لك حجة أنت كمان، ولا صاحبنا هبد منك فدان؟!

انساب الرجل، أفاض من روحه وعينيه، ومن آن لآخر، يزحـــزح مؤخـــرته، ويمـــيل بنصفه الأعلى مقتربا من وجه الشيخ.

– جـــاي اتبرع بفدان، لجامع في أرضي يا شيخ حامد، لو عايزه للمصنع بتاعكم، اتنازل لك عنه.

قـــال الـــرجل وهـــو يمسح دموعه ومخاطه بكم جلبابه الكشـــمير، إنه سرح بخرج التموين حتى تشققت قدماه، أكله الشـــقاء أيامـــا وسنينا حتى فتح الله عليه، وأصبح له دكان، يعـــيش على ما قسم هو وامرأته التي لم تنجب، إلى أن كان الـــيوم الهباب الذي قابل فيه رجلا سمينا يستلم أذون التموين مثله.

قـــال، وقـــد أصـــبحت عيونه مثل مؤخرة الحمامة، إن السمين هذا هو الذي أشار عليه أن يخرم باكوات الشاي، وأن يخلط السكر، وأن يضع الماء على الزيت..

ـــ اغتنيـــت يا شيخ حامد في ظرف خمس سنين، أرض تمرح فيها الخيل، والفلوس متلتلة، ولا عيل ولا تيل.

يومـــا وراء يـــوم، والفلوس بالزكايب، قرصه ضميره، والمـــرض، وكـــبر السن، شعر أن نهايته قربت، يدور على عزب الغبايشة يبني جامعا هنا وآخر هناك.

.. وقعت في عرضك يا شيخ حامد..

يمـــيل بشدة على الشيخ، يكاد يصعد على رقبته.. دلني يا شيخ حامد أبوس جزمتك.

الغضب يندفع سريعا إلى سحنة الشيخ، ويكسوها، كأنك صـــبغته بتوتيا زرقاء، في سوق الحمير يوم الاثنين، يضرب كفا على كف.

.. يا خبر أسود، دا الدنيا كلها كده يا ولاد، أقسم بالله لو بنيـــت فـــي كل دار جامع، لازم تلف على كل دار كان لها تموين عندك، وتديها حقها بالمليم، وتستسمحها.

قـــال المسئول في المصلحة للشيخ، أن المسافة بين فدان كمال والطريق العام كيلو متر واحد، والدبش المرصود لتعبيد الطـــريق يكفـــي وزيادة، لكن في سرك، الحاج قرد أخذ ثلثه لتمهيد الطريق حتى داره، والثلث الثاني أخذه المحروس ابنه لداره الجديدة، بقرار معتمد ومختوم.

ـ أيام انتخابات يا شيخ، كل انتخابات وأنت طيب.

الحسرة تسرح على وجهه، والصهد يندفع من مناخيره، كأنه خارج من قمينة طوب أشعلت للتو، يأخذ طريقه خارجا لا يكاد يرى.

.. يا بني أنت ورايا ورايا ؟!

قال الرجل وهو يتشبث بذيل الشيخ.. حتيجي تخطب الجمعة الجاية عندنا، سايق عليك النبي

.. مين الراجل التخين بتاع التموين اللي شار عليك الشورة المهببة دي.

ـ واحد من عندكم.

.. يا خبر أسود ومنيل بقطران، ليكون هو.

ـ واحد من عندكم اسمه كمال أبو شبارة.

فار البراد على الراكية المشتعلة، لولا ستر الله، لامتد إلى ساقه الممدودة، تطلع للقادم، أخذ يجوب بعينيه ويعس، وجده قد اختفى تماما، يضرب كفا بكف وصوت ضحكته يترامى حتى آخر حدود الغيطان.

صـــراخ متواصل يخترق فضاء الجامع، يقطع صلاة العصر، يربك المصلين ويختلط بصوت الشيخ حامد، التسليمة الأخيرة كانت على طرف لسانه، الصراخ يعلو بشدة، سلم من ســلم، واندفع من اندفع، لا ختموا ولا سبحوا، راح كل واحد فـــي اتجاه، الذي لقف بلغته، الذي لقف فردة وخلى الأخرى، والذي كان حافيا من أصله.

ربمـــا لا يـــزيد الأمر على حريق اشتعل في القش الذي يغطـــي أسطح الدور، والخوف أن تنهمر بسببه الثعابين التي تعـــيش في القش وتألفه، تتساقط كالطوب عندما تشم رائحة الـــنار، أو شب جاموس وقع في بير احدى السواقي القريبة، صـــاحبه يزعق، وامرأة عابرة تتلقف النداء، ترقع بالصوت الحياني دون ان تتبين حقيقة الموضوع.

حيــن انفــرطوا من باب الجامع ــ بعد مزاحمة ــ بدا الأمــر كما لو كان إحدى الخناقات التي تندلع من وقت لآخر بيــن شــباب العائلات، وبأسباب مضمرة في الغالب تتعلق بالتــنافس العائلــي، أو الصراع على الزواج من ابنة العم، وليخرج الغريب من الموضوع فورا، ويعلن استسلامه، وإلا تحول الأمر إلى عركة بالنبابيت وهات يا ضرب.

ســرعان مــا انجلــى الأمــر، والهــرجلة التي طغت، والأصــوات التــي تعالــت وتداخلت بمبرر وبدونه، تبينت طــريقها ســريعا، إذ بدت الفنجرية وسط الغاغة مثل جمل هــائج، وهي تجذب أبو شبارة بعنف شديد من ياقة كاكولته المزيــتة، تزحــزحه يمينا ويسارا بصعوبة بالغة، ومؤخرة الــرجل ثقيلة ثابتة على عهدها، ممسمرة في مطرحها، كأنها لصــقت بغــراء قديم، تحتاج لحبل من السّلب يحزم وسطه، وعشرة حرامية حتى ينتعونه من مكانه.

بــدت المرأة، وكأن بها قوة فرعون، أمسكته من زمارة رقبته، ونطرته بعيدا عن مصطبته الأثيرة، والناس نزل عليها سهم الله، تسمروا في أماكنهم كأنهم أُخذوا، وهي تبرك فوقه،

تعـض وتضـرب بقبضـة يدهـا، وتصرخ بعزم ما بها.. يـا ضلالي يا بن الكلب، يا عرة الرجالة، قول الحقيقة مرة، قول الحقيقة يا مره.

أفـاقوا، انـتزعوها من فوقه، وحمله ستة أو يزيد، هيلا بيلا إلى مصطبته، مغميا عليه، رشوا الماء على وجهه، ولما اسـتطالت إغماءته طلع من يقول، الوليه قتلته، الوليه قتلت الراجل، لكن البصلة الناشفة كانت في انتظاره، شمها بطيئا، بطيـئا اسـتفاق، وإن بدا مثل بقرة عُشر أخرجوها من قاع الساقية بعد أن شارفت على الهلاك.

خمـس دقائق أو يزيد، كان نصف الجمع قد انفض، كل إلـى حالـه، والنصف الآخر تجمع حول الفنجرية، أبعدوها بالعافية عن دكان الرجل.

مـثل لـبؤة جريحة، افترشت الوسعاية أمام الباب القبلي للجـامع، تمسـك ذيـل جلبابها الأسود، ترفرف به، تصعد وتهبط، وهي تقول : راح فين الندل ابن الندل.

كان النذل وفا زيت حار قد شم بحاسة ذئب البراري أن الموضوع طلع من يده فانسحب دون أن يشعر به أحد.

أيام وليالى، وهو يدور حول الفنجرية، ويلف حباله، حتى يعـرف كل خافية في البرية، خاصة أسرار بن عمه النادي، وأخوتـه، حام حولها، رمى بياضه، سدت الباب في وجهه، تركـن روحهـا عند النادي وتستند عليه، وتكره زيت حار وريحته كره الجاهلية، لكنها من الذين قرصهم الزمن، تعرف أن الدنـيا دوارة، لـذا كانت تبلل قدميها ولا تخوض، واعية سرها الذي تخبئه تحت سرتها من قبل أن تطأ أرض البرية، تقـول بينها وبين نفسها.. يا حيطة داريني، كأن خوفها من انكشاف سرها هو الذي جعلها تمسك بأسرار الناس أو كأنها تكفن أشياءها بأشيائهم.

تعلقـت فـي عرض النادي ورقبته، كانت عينه الثالثة، لكـنها لـم تبـتعد عن حوش زيت حار وأبيه، وإن لم تلطخ قدميها، الأمر لا يسلم، ومن تعافه تعوزه في يوم من الأيام.

فـي لـيلة زواج شقيقه الفرماوي، سبع الليل، استدرجها المشـئوم زيـت حار إلى المقاعد أعلى الدار بحجة تشوين الحلويات، هي المسئولة والكبيرة، سلمها المفتاح، وراح يلعب علـى خـيالها، الدكان سيصير دكانين، وقطعة أرض داخل

الكردون تبني عليها داراً، وهي تحسست سرها، واتكأت على ضـــعفها الذي لا يراه سواها لتبدو قوية طويلة النفس، مهما كـــان فهي غريبة عن البرية، النادي مات، والغريب ملطشة، جارته فيما يريده كي تأمن شره، وإن تحوطت لنفسها، أعدت كراسي المعسل، وأعد هو الحشيش، كَرّسا معا، شفطت هذرا حـــتى صـــهللت، أشعل تعميرة كبيرة، وغطاها بكوز المياه، شـــفطت حـــتى تعبأت نخاشيشها، تعبأت وتعبقت، زيت حار جـــاب رجلها، راحت في دنيا غير الدنيا، ركبها وهي نصف غائبة، ثم ركبها وهي محمومة، لم تدر بنفسها الا ممددة على ظهـــرها بفخذيـــن عاريتين، لباسها أبو كرانيش مرمي على صـــواني الحلويات، ورائحة الجماع تملأ المقاعد، وتنشع من مناخـــيرها، وهـــو يشخر بجانبها مثل حمار السوق، جلبابه منحسر عنه، وعصاه متهدلة بين فخذيه.

أمسكت بخناقه، كاد يفطس في يدها، حاول أن يراوغها، لكـــنها ســـدت عليه منافذه، مثلما سد عليها منافذها، تزوجها عرفـــيا بشهادة أبو الفضل الأعرج وراغب حرامي البط، أبو الفضـــل ســـيكفي علـــى الخبر ماجورا، لأنه من لحمها، من

المطـــاريد، أرواحهـــم متشابهة تشتكي لبعضها، قلقة، تمشي علـــى كف عفريت، حتى وإن لم يكن، فهو آدمي، يثمر فيه العـــيش والملـــح، يأكل لقمته من عمله في دكانها ، هي التي لملمـــت خوفه وجبنه، علمته أن يأكل من عرق جبينه، وألا يتكفف أحدا، أو ينتظر حنية الحرامية، وراغب يبصم بالعشرة أنـــه سيذهب وراء الشمس لو تفوه بكلمة، ولن يرضى زيت حار بأقل من قطع رقبته.

الوحـــيد الذي شم خبرا بالموضوع هو أبو شبارة، طلب منه زيت حار أن يقتطع لها جزءا من تموين العائلة من وراء ظهر أبيه بالطبع، كان مرعوبا أن تتسرب الحكاية، وهو الذي يعـــد نفسه للخلافة، ولا يليق به أن يتزوج في السر، وممن، حتى ولو كان نصف البرية على هذا المنوال.

يعـــرف بســـلامته أن هـــذا لا يلـــيق بمقامه، ويوقن أن اغتصابها واغتصاب أرض الآخرين حق لا يماريه فيه أحد، وأكـــثر مـــا يخشاه بالفعل أن تقع الطوبة في المعطوبة، وأن تفضحه هذه المرأة التي لم يستطع أحد أن يفض أختامها.

الطـــبع غلاب، كل مساء حين تركبه الحاجة، يمد لسانه ناحـــية الشـــمال ثـــم اليميـــن، يلحس حواف شنبه الأغبر، يمصـــمص شـــفتيه الغليظتيـــن، وابتسامة العقرب تقفز على وجهـــه، يـــنهض مـــن قعدته مزهوا، يتسلل إلى خزانتها في نصاص الليالي، بعد أن ينام الخلق، وتصحو الذئاب، تفتح له الـــباب بـــيد، وتحاول أن تزيحه بالأخرى، بهدوء، خشية أن يطلـــق علـــيها كلابـــه، وكلاب أبيه، ويطردها خارج البرية خـــزيانة ــ فـــي أحســـن الأحوال ــ بعد أن قويت شوكته، وشـــوكة أبيه بوفاة النادي، تستجمع ما تبقى من روحها، تشد حبل ظهرها الذي قويت شعلته بعد اغتصابها، وزها الشيطان أن تضـــع له السم، لكنها بلعت ريقها، وخفضت جفنيها لليوم الذي تقرر فيه الخروج من البرية، تطبخ له مما سرق، تعمر لـــه المعســـل حتى يكبس على نفسه، ويعد النجوم السهرانة خـــارج الخزانة، تلقيه خارجها كجوال الخضار، تقفل الباب علـــى حسرتها وغلها، تفاجئها النار التي تصعد من جوفها، فتتقـــيأه، لـــن يأخذها من بعد طوعا ولا كرها، لكنها بعد أن

تـــزيحه، تدور كالمجنونة في خزانتها، تهرش ما بين فخذيها كالسعرانة ولا يغيب عنها لحظة كيف أخذها غيلة.

تغـــيم ذاكـــرتها، تلفها رائحة الخزانة المعمرة، وضباب الدخان الذي يتلوى أمام عينيها، تأخذ نفسا متسارعا، تغمض عينـــيها وتغيـــب، ترفس برجليها في الأرض، وهي ما تزال تدعكـــه بقوة، تصعد وتهبط، تسرقها النشوة، تأخذها التوهة، تحك ظهرها في سيف الحائط، تكاد تقطع فخذيها، تعلو بهما، تـــراه يقهقه من خلف الدخان، تهبط بهما، تراه بجانبها يشخر عاليا، وعصاه مازالت متهدلة، تضرب رأسها بالحائط، تخر من طولها على الأرض، ثم تستفيق.

كرهـــته، وتقيأته، قررت أن تضع حدا لنذالته، تتمنى لو كان إلى جوارها رجل يأخذ أنفاسها، ويؤنس وحدتها، لم تكن تـــبدو وحيدة أمام الناس، تغوص فيهم حتى مخادعهم، لكنها حيـــن تقفـــل عليها بابها، تخرج وحدتها، تفرقها بالعدل على شقوق خزانتها.

ـــ مش عايزه أشوف وشك هنا تاني يا دكر البط.

استجمعت خيبتها، عرفت أن خوفه يسبق خوفها، تراقصت أمامها سنين غربتها وتدلت، مناخيرها تحمر، تتسع لحد الآخر مثل مهرة قبل ركوبها، زفرة ساخنة تلحق بأخرى وتلفحها، لاح لها سرها، سرها الذي خبأته من آذان الليل، وعيون النهار، ولم تطلع عليه كائنا، ولو استطاعت أن تنساه لفعلت، تنسى عملتها السوداء التي هجت بسببها إلى البراري، لتدفنها، وتقطع بينها وبين الماضي، لكنها لم تلم نفسها لحظة، لم تفعل ما فعلته إلا دفاعا عن زوجها الغلبان الذي شالها في عينيه وعلى كفوف الراحة، كان يطالع في الروح أمام عينها، وراح منها في غمضة عين، أخذتها التوهة، شالها الشر، وفعلت ما فعلت، حتى ربنا لا يرضى لو سكتت ووقفت مكانها.

تمسح الكحل الذي سال على خدها مختلطا بالدموع، وحشتها رائحة دارها.. هل كان يمكن لها أن تعود، تعود لمن؟، لا كتف ولا مسند، لا ظل رجل ولا عيل، قدر ومكتوب، حطت في البراري وعاشت، تاهت وسط الحرامية والمطاريد وإن أخرجتها أنوثتها من الظل أحيانا، حن عليها

الـــنادي، وبعده أغارت عليها البرية، وطلع لها زيت حار في البخـــت وحصل ما حصل، طلبت الطلاق، ساومها، طلاقها مقابل حجة المصنع.

وســـعاية الجـــامع اكتظت بالخلق ثانية، ترش الملح فلا يـــنزل، تعـــترف بزواجها الصوري منه، وأنه ساومها على بقائها في البرية أو فضيحتها، دبت السكين في قلبها، وسرقت له الحجة على ننى عينها، عينها التي سحت وهي تعترف أنها غدرت بالنادي وأخوته، وبالبرية كلها.

وأبو شبارة بعد أن استفاق، واطمأن على أن الدكان كما هـــو، لـــم يسرق في زحمة غيبوبته، أكد كلامها من باب أن يشـــهر بها، وبزيت حار بالمرة، وأن يستعدي القرية عليهما، كـــادت الـــناس تـــرجمها بـــالطوب، يصـــدقونها في قرارة أنفسهم،ويتظاهرون بغير ذلك خوفا وطمعا، وحده أبو الفضل الأعـــرج، رفـــع عكـــازه، تقدم إليها وأخذ بيدها، لكن الشيخ حامد، الذي طلع فجأة من تحت الأرض، شق الجمع، وسحبها من يدها، همهموا، وراحوا يتفرقون.

مشـــت وراءه شـــاردة، لـــم تقل كلمة واحدة، ولا عينها جـــاءت في عين أحد، وهو يرمح أمامها، يرقع ضحكة عالية مخشوشـــنة، يوزع شماتته على زيت حار، وعلى أبيه الذي تمرغـــت سيرته في التراب، وفضيحته بجلاجل على رؤوس الخلق.

قـــال يونس الحمراوي الواقف على باب دكانه، الذي لم يحضر الزفة ولا شاف العروسة :

ـــ يا با، يا يا يا با الشيخ.

.. راجع لك يا يونس، راجع لك، وضب البراويز والذي منه.

ـــ حأحط الشاي على النار.

حيـــن وصـــلا، كان باب الدار مواربا كعادته، عروسة متكـــئة إلـــى الحائط خلفه، دخان القوالح يتصاعد من المنقد والجـــوزة متأهـــبة، علـــى يمينها القفة إياها، وعلى يسارها الأخـــرى، بـــيدها الغربال، تهزه، تطوح ما به لأعلى، تنحو لليمين، تفرغه، وتقول بصوت عال وكأنها لم ترهما.. الزين

هـنا، ثم تهزهزه ثانية، تطوحه، ترميه على جنبها الآخر.. والشين هنا.. الشين هنا.

حيـن أطـالا الوقوف، توقفت، وضعت الغربال جانبا، شـدت طرحـتها مـن الخلف، التقطت النار ووضعتها فوق الجوزة، وقبل أن تشد:

ـ بـت يـا فنجرية، جوزك الأولاني، عايش ولا ميت يا بت ؟!

بعد ثلاثين يوما، قالت عروسة أنها سوف تزيد سبعة أيام فــوق الأربعين، وأنها شافت طابوراً طويلاً لناس عرايا، كل واحد معه ورقة في يده، وأن الذي أشار للمهرة بإصبعه من قــبل، أنــزلها، أعطاها تذكرة صغيرة في يدها، وأوقفها في الطــابور، وبنفس مرتاح، طلبت من حامد أن يخرج بقجتها من الدولاب القديم، ينشر كفنها في الشمس، ويعطره بزجاجة الريحه الباقية من ريحة النادي.

.. علي النعمة من نعمة ربي، لتعيشي حتى تفنينا، زودي شويه يا مه، على الأقل بعد ال..

بطــرف عينيه لمح آثار شمع جديدة على حواف اللحاف ... على الأقل بعد الحاج قرد.

قالهـــا على عجل، خرج بسرعة من غرفتها، رمى نفسه على الحصيرة، حامت حمامة في الصالة، دارت ودارت فوق رأسه، اقتربت من باب عروسة، رفرفت بقوة، وجناحها خبط حلـــق الباب، تساقط بعض ريشها، ثم عادت أدراجها، أزاح طاقيـــته للخلف، هرش في جبهته، نطت التكشيرة من وجهه وغطت ملامحه، بدأ يوقن أن المسألة دخلت في الجد.

كـــان علـــيه أن يسلم أوراق الجامع للشيخ لملوم، الشيخ الجديـــد، في الخطبة الأخيرة قدمه للناس، ودعا له بالتوفيق، باقـــي له جمعة واحدة، فكر أن يتنازل عنها، ويتركها احتفاءً بـــه، لكن لملوم حلف بأغلظ الإيمان.. هي تحلى من غيرك يا سيدنا الشيخ، وختامها مسك بإذن الله.

لملـــوم ابـــن بنت مصطفى نشوان فراش الجامع، وربنا يستر..

في أول الطريق، استلمته هنيه، عمره ما شعر بالكسوف مـــن أحـــد، يستطيع أن يأخذ أتخن واحد تحت باطه، يدوره، يـــبلفه ولا يـــأخذ غلوة في يده، هذه المرة يشعر أنه في نص هدومه، ويصعب عليه أن يكسر خاطر هنية، الغلبان لا يشبع غلبا، لكن ما باليد حيلة.

حاول أن يفهمها الموضوع بهدوء، فكر أن يقول لها أنه سيحاول ثانية، و عليها أن تطول بالها، يوم الحكومة بسنة، لكنه خاف من العشم الزائد، وطول الحبال، والكحل الذي أصبح برنامجا يوميا، وهنية تتحمم كل يوم، قد يطين الدنيا، والمسألة رغم صعوبتها ستصبح عقدة، ومن يحلها ؟!، أنت مدب من يومك يا حامد، قل لها وأمرك لله.

بدلال مدت يدها تسحبه من كم جلبابه للداخل، تملص بلطف.. الحكومة دماغها ناشفه يا هنية.

ـ يا شيخ حامد، كتبنا الكتاب، نعلى الجواب بقه، وخلي الحكومة تفكر على مهلها.

.. يا هنية الحكومة رفضت الموضوع بالعربي كده، وحتى لو اتجوزتك، مفيش معاش ولا يحزنون، الحكومة حتشفطه وتحطه في عبها.

ـ معاش إيه وبتاع إيه، مش عاوزه معاش ولا دياولو.. حسك بالدنيا.

.. يا هنية الموضوع من الآخر ماعدش ينفع.

تمصمص – ما عدش ينفع، وأنا اللي بأدعي للأولياء كل فجر وأدان، هي باينه من أولها، حتسيبني لمين يا شيخ حامد.

.. ربك موجود.

شـــعرها الذي تسبسب من تحت الطرحة الشيفون اختبأ، إذ مدت يدها وشدت شدتها.

ـــ وراغب، وربيع، وزيت حار، كمان موجودين يا شيخ حامد، تستنى لحد ما واحد منهم يلوف عليا، وبالغصب.

.. أنت ما عندكيش حاجة يطمعوا فيها يا خايبه.

أحس أن جملته جارحة.. قلت لك أنك مدب يا حامد، عك الدنيا بدلا من أن يضع مرهما على الجرح.

ـــ يعني اللي مالوش مالوش يا شيخ حامد

.. الحكومة ما تحبش الستر يا بنتي

ـــ الحكومة ولا..

لم ير دمعتها، لكنه أحسها في قلبه، ما جرى له منذ وفاة الـــنادي وضـــياع الحجـــة وحكايـــة الفنجرية كوم، ودمعة المكســـورة كـــوم آخر لوحده، ماذا يفعل للحكومة التي سدت

بـــاب الرحمة في وجه الغلابة، وفتحته على قرد وأبو شبارة وزيت حار وأمثالهم.

دون أن يـــدري غـــير وجهـــته، كـــان ذاهبا إلى يونس الحمـــراوي، انتـــبه علـــى نباح متواصل، ثم وصله صوت هزيمـــته، شـــاهد إســـماعيل بوجه فرحان، وروح منتشية، وعصاه مرفوعة.

كـــل يـــوم يمر أمام دار أخواله العمد يتحرش بكلابهم، يطوح عصاه الهندية الرفيعة ليستجلبهم، يطرطق أذنيه، يلوي رأســـه لأعلـــى يمينا ويسارا، وعندما يشعر بقدومهم يخبئها خلـــف ظهـــره، فجأة ينزل كالقضاء على سناخ أذن الكلب، عصـــا واحدة تصيبه في مقتل، كأنه يرى، والكلب يجر ذيله خائبا ذليلا، وقد تدلت أذناه، وإسماعيل أصبح داؤه ودواؤه أن يفعل ذلك كل يوم، ولو استغرق الأمر ما استغرق، ثم يمضي منتصرا.

تنحنح الشيخ، قبض على ذراعه، ومضيا خطوتين، فجأة وقف إسماعيل:

ـ يـا راجل واخدني على فين، رايح أتغدى عند خالتي عروسه، وأشرب لى كرسيين.

.. أنـت مفـيش وراك غـير الغدا والعشا، ماشى بسبع كروش.

فكـر أن يـتركه يذهب إليها، ليشبع منها، وتشبع منه، وحتى لا يلومه فيما بعد لو جاء خبرها مره واحدة، عد الأيام على أصابع يده، ثم سحبه.

قال يونس إن الشاي أصبح ماء، سخنه مرتين وشربه.

إسماعيل عرف طريقه إلى الكنبة الخشب:

* ما تعملي صوره يا واد يا يونس، وكباية شاي تقيله.

غمز الشيخ ليونس، انتحى به، وراح يوشوشه، قال له أن يتسـحب، وأن يذهب لداره بأى حجه، ويرسم صوره لخالته عروسـه، وبالمـرة يعمل واحدة لنميره، يونس تلجلج، وهو قطع الكلام لما شاف الدم هرب من وجهه، لم تطاوعه نفسه أن يكمـل ، أخـرج بطاقـتها الشخصية بصورتها القديمة، ومدها له.

.. ارسمها حلوه زى ما هى حلوه كده يا يونس.

ـ ووووو.... وحأعمل وشها بعيدان القمح الأبيض تطلع بيضه منورة زى ما هي منورة.

* هنـيه ولا الفـنجريه يـا شيخ حامد ؟!، فين الشاي يا يونس.

الشـيخ حـدق في الصور المعلقة على الجدران والملقاة على الطاولة الخشب، رنت ضحكته في قلب الدكان إذ وقعت عيـناه على صور للحاج قرد، وراغب، والمكاوى، وربيع، وزيت حار جنبا إلى جنب.

ـ كـانوا هيضـربونى يـا شـيخ حامد لو معملتهاش، ووووو، ولو عملتها برضه هيضربونى، ومش هيدفعوا.

.. بس أنت رسمتهم وعلقت صورهم قبل ما يموتوا .

ـ هـم اللى زى دول بيموتوا يا شيخ حامد، لا بيموتوا ولا بيدفعوا.

إسـماعيل يشـفط بصـوت عـال، بعد أن وفى مزاجه وضرب الكلب.

* الشاى بارد ليه يا يونس، وأنا بحبه ملهلب.

.. كل حاجه عايزها ملهلبه.

استعجله الشيخ، ثم أقامه، وقبل أن يتخطى العتبه:

.. واد يا يونس، ما تتجوز هنيه ياله، وينوبك ثواب.

ــ ت، ت ت ت، ت تانى يا شيخ حامد.

سحب إسماعيل، وهو يضحك..

* اعمــل لــى صــوره يا يونس، والشيخ حامد حيدفع حســابها، ولا تعــال نــتغدوا عــنده، ونبقوا خالصين، كان مفروض عملتلى صوره من زمان قوى ياله.

مضيا صامتين، يجران أرجلهما حتى آخر حدود الدور.

ــ أنت شمتان يا شيخ حامد ؟

المسألة لا تنقصها الشماتة يا إسماعيل..

رغم أنه أحس بها للحظه حين رأى وجه قرد وزيت حار وبقية الزبانيه مثل خرقة الفرن، لكن الموضوع أكبر من هذا، بعد فتره قصيرة سينسون الحكاية، سيدفنونها، ويعودون إلى منوالهم، بل ربما يزيدون، المؤكد أنهم سيزيدون، النار التي تسكن صدورهم لا تشبع، لا تطفئها فضيحة ولا عشره، ناس ماتــت قلوبها، ونحس جلدها على كل الخطايا، إذا لم يقترفوا الــباطل لا يــنامون، تــأكلهم أجســامهم إذا كانــت نظيفة،

وتطردهم، يرمون أوزارهم خلف ظهورهم ليشيلها إسماعيل وأمثاله.

يتلفت حوله، يرى إسماعيل، عمره سرق منه لحظة بلحظة، تلاحقه المصائب من صغره، من بلوى إلى أخرى، العمى، وهروب هجالته، وابنه الذي لا يعرف هل هو حي، أم ميت، وأرضه التي أكلوها سحتا، ومضغوا عيشها بصوت عال جنب أذنه، والفنجرية التي اغتالت شهوته بعد ما تمناها على آخر الزمن، وإن عافها بعد الموضوع إياه، ونسي الملهلب.

يرى الزمن وقد أحكم طوقه حول عنقه وعنق أحبته، صحة نميرة.. في كل لحظة يتوقع أن يزورها صاحبنا، ومهرة عروسة، والدمرداش يحتاج قرنا لينصلح حاله، وسناء المشتاقة، وهنية التي سرق الأرض من تحتها، من يعيد لها كحلها، من يدافع عنها، ويحوش عن يونس، والفنجرية وأبو الفضل الأعرج وأبو دياب، إن لم تطاردهم الفضيحة، وتجرسهم عيون الناس، ستطاردهم لعنة الغربة، وهدمة المطاريد، الدنيا تضيق على هؤلاء، وتغرف بكفوفها وتعطي الحقدة والحرامية.

ـ طولـت بـالك، وربنا أمهلهم، وحيخلص عليهم واحد ورا التاني، صحيح العمر بالشقا طويل قوي، لكن أول نقطة مـن الشـتا نزلت من السما، واللي حتزرعه حتلاقيه يا شيخ حامد.

لا يا إسماعيل، لا، أصعب زرع في الدنيا هو الزرع في الـنفوس، وحـتى إن فلح مع البعض، يبدو مثل شجرة توت وحيدة، صحيح أنها تستعصي على السوس لكنها تظل وحيدة، أمـا أشجار أصحابنا كأنها غابة، تلف وتحابي على بعضها، السوس يطلع منها ولا يأكلها، كل يوم تكبر وتسمن، تستطيل أظفارها وتصبح غولا، برية بحالها من الغيلان، يأكلون مال الأنبياء، ويغمسون بعرق الناس، واغش يا إسماعيل، واغش، ليـته يقضي على الخلق ليرتاحوا، لكنه يطيل عذابهم ويتفرج عليهم، وحطبهم محمص يا إسماعيل، واغش، يفعل بهم مثلما يفعـل فـي الـبط تمامـا، البط يرفرف كل مساء عائداً من المصـرف، وهـو يتحين الفرصة لينقض عليه ويدخل تحت جناحه، يأخذه على غفلة، يمد إبرته، يلسعه، ويمص دمه على مهلـه، يتلذذ، ويسرق روحه على دفعات، يقتات لحمه حتى

يلتصق جلده بعظمه، وعيونه نصف نائمة، لا هي حية، ولا هي ميتة، وريشه يكسوه من الخارج، يكسو نفسه.

واغش يا إسماعيل، واغش، يمصون دم الخلق ويتركون لهم الريش، لا قرد مات، ولا راغب خلص، ولا نشوان انتهى، كل يوم يتسللون تحت الأجنحة.

.. الدنيا باظت يا سماعين.

ـ أنت لسه قايم تعرف دلوقت أن الواغش في البني آدمين، مش في البط بس. الدنيا باظت من ساعة ما أكلنا الفراخ البيضاء، والسمنة الهولندي، ولبسنا الجزم البلاستيك، والجلاليب الديولين.. أنت مش كنت قايل أنك حتعمل عزومة لو لقيت الحجة.

ـ.....

ـ أنت ما بتردش ليه ؟، واخدني على فين يا راجل، رايحين عزومة عند صاحبنا بتاع الغبايشة ؟

.. احنا في الترب يا سماعين.

ـ يا نهار مطين، بنعملوا إيه ؟!.

.. بنشوفوا تربة خالتك عروسة.

اخـــترق صفوف المصلين من الخلف، قادما من حجرته الملاصقة للباب الجانبي، لم يره أحد قبل دخولهم للجامع، ولا توقعوا، وقف أمام المنبر تماما، انتفض وفا زيت حار، حمل نفسه وجزمته على عجل، وخرج من الجامع.

حمد الله وأثنى عليه، ودعاه أن يشرح صدره حتى يفقهوا قوله:

.. أنا شايف تلاته من الحاقدين قدامي دلوقت في الجامع، والرابع خرج في ستين زحلة.

تململ الحاج قرد في قعدته، زام وبلضم، شاركه ربيع من بعيد.

.. اللي حيتكلم كلمة واحدة حاطلعه بره الجامع.

راغب لم يحرك رمشا، وربيع انتظر رد فعل الحاج قرد، فكر أن ينضم إلى جانبه في الصف، بطرف عينه لمح

الدمـــرداش جالســـا على عتبة باب الجامع من الداخل ومعه نبوته.

.. الـــبلد دي كـــان فيها احداشر حاقد، ستة ماتوا وباقي خمســـه، واحـــد فـــي الجامع القبلي، وأربعة هنا في الجامع البحري على نصيبي، إف، الجامع ريحته شينة كده ليه.

كـــانوا قـــد رتـــبوا نفســـهم على طي ورقته، يغور من وجوههـــم بعد أن كبس عليهم طويلا، ويعبر بهم الشيخ لملوم أيـــامهم الباقـــية لهم على ظهر الدنيا، أيامهم الطويلة، لاموه، وعـــنفه جـــده نشوان لأنه لم ينتهز الفرصة، ولم يكلبش في حبالها حين عزم عليه حامد أن يخطب هذه الجمعة بدلا منه.

.. إف، الجامع ده ريحته عامله كده ليه ؟

رغم أنه نبه على نشوان أكثر من مرة أن يحضر الأنفار لينزحوا ميضة الجامع، أو على الأقل يسلكوا المجرور الطالع منه، حتى لا تعكس الخرارة روائحها داخل الجامع.

.. إف.. إف علـــيكم، وزادت وغطـــت بـــالحقدة، طول عمـــري نفســـي أخطـــب، وأنـــا مغمـــض عينـــي، علشان ما أشوفهمش.

تنحـــنح إســـماعيل، يسند ظهره للمنبر، يجلس في نفس مكـــان أبو عبده والنادي، أجلسه الشيخ به بعد أن حرمه على

الحاج قرد الذي كان يريد أن يأخذه بالوراثة، أو بالشفعة على رأي إسماعيل.

.. أنـــا عارفهم، أول ما حيطلعوا من الجامع، حيقولوا.. شفتم حامد بن عروسة، الغجري، واللي أمه جايباه من شونة، قـــال عليـــنا إيه في الجامع.. أربعين سنة، أهاتي، وانبح في صـــوتي، أعلـــم فيكم، والله لو كنت علمت في حيطة كانت نطقـــت، لا بتشتغلوا، ولا تعرفوا مصلحتكم فين، والباب اللي فيه نفع ليكم تسدوه، تسدوه برجليكم، حتى مش بأيديكم، تقفوا مـــع بعـــض، وضد بعض في الخايبة والناقصة، وعند الجد أيدي منكم والأرض.

انقطـــع صـــوت حنفيات الميضة فجأه، بعضهم بص من الشـــباك، ثم اختفى بسرعة، أخذوا ذيلهم في أسنانهم واتجهوا للجامع القبلي.

.. أنا بحمد ربنا أنه حيريحنى منكم، لكن يا خساره، بعد إيه، المصنع ضاع تحت عينكم، كنتوا حتشتغلوا فيه، وتاكلوا بعرق جبينكم، بدل ما تقعدوا انتوا وولادكم على كوبري البلد للصـــبح.. بسلامتكم تصلوا لله، وتصوموا لله، والواحد منكم مـــش لاقي ياكل ورايح يستلف علشان يحج، والناس يقولوله يـــا حـــاج، وعياله يقولوا الحاج راح، الحاج جه، أقسم بالله

مـــا فـــي علـــى ضهر الأرض ألعن منكم، جوع وجعانين، ومقملين، والدنيا في كل حته بتتغير وتتقدم، وأنتوا عايشين يا ولداه في كرب، تتفرجوا على المركب وهي ماشيه وساييباكم، كأنه منام، كأنه كابوس، هو كابوس فعلا مش كأنه، كنتم خير أمة أخرجت للناس، أنتم، أنتم !!

اللهم قد بلغت، عليّ الطلاق، الأرض لن تتصلح طول ما علـــيها مســـلمين شبهكم، قاعدين مكانكم وتستلفوا، ويا ريت لاقييـــن حد تاخدوا منه، لكن على إيه يعني، أنتوا أحسن من الحكومـــة فـــي إيـــه، حتى الحكومة نفسها بتستلف، والريس الكبير قوي بيروح أمريكا اللي بعد الأطلنطي، فاكرينه، يروح يستلف علشان يجيب لكم تاكلوا.

الجـــامع كأنـــه يغلـــي، بخوا تنهيداتهم عند انتهائه، قرد وربـــيع وراغب صلوا في الصف الخلفي، وانطلقوا بسرعة، وإسماعيل حمد الله أن الصلاة عدت على خير، الشيخ يتقدمه، والدمـــرداش يمشي خلفهما في الطريق إلى الدار قابضا على شومته.

عـــندما وصـــلوا، كانت دموع نميرة تسح، وعروسة قد ركبت مهرها وانطلقت.

قالـــت نمـــيرة أنها رأت كوكبا في قلب السماء ليلة وفاة عروسة، راح يدور ويدور حول البرية، يغيب ثم يظهر ثانية، واخـــتفى قبل طلوع الفجر، وبان وجهها كالبدر المنور، قالت وأبطأت ثم لحقت بها في الصباحية.

في الطريق إلى الجبانة لمح عزرائيل في الصف الأمامي للمشيعين.. يابني هو انت ورايا ورايا..، مشى كأن الأمر لا يعنيه، وإن اصطدم بإسماعيل الذي كان يمشي خلفه.

عقـــب الدفـــن، تسمر في مكانه، يقرأ يس لنميرة ويلقنها حـــتى تثبـــت عند السؤال، والمشيعون في الانتظار، عندما خرج وجد زيت حار قد تلقى العزاء.

فـــي طـــريق العودة، النعش الفارغ في المقدمة، والناس خلفـــه في عجلة كأنهم خائفون ألا يعودوا، وجده ثانية يمشي

أمامـــه، عـــرفه مـــن ظهـــره، أبطأ قدمه، فك ذراعه من يد إسماعيل وانتحي جانب الطريق.

ـــ على فين يا شيخ حامد ؟

.. حياتك الباقية يا خويا

ـــ على فين يا شيخ حامد ؟

.. رايح أفك حسرتي

ـــ ما تيجي تفك حسرتك عندي.

كتبت الرواية في المقاهي الآتية:

أفنديا	مصر
رندة	تونس
درة وفاطمة	" "
الأوبرا	" "
الأمير	" "
كوت آكوت	" "
السقيفة	" "
دريم	" "
بابيون	" "
المعازيم	" "
الفيراندا	" "
توركانا	" "
مقهى ولد بابا	موريتانيا

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : احمد اللياد

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ميريت